فؤاد شاكر

الإسلام والذوق العام

دار الشروق

الإسلام
وَالذوق العَام

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ . ٢٠٠٠ م

دار الأوراق الشرقية
للطباعة والنشر والتوزيع
كورنيش بشارة الخوري - بناية تمارا - ص. ب.: ١٤/٥٢٧٦ - بيروت - لبنان
برقياً: DISTLEVAN - هاتف: ٦٥٦٦٥٧ - فاكس: ٦٥٦٦٥٨ -

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

جميل جليل أن تتنزل رحمات الله على أمة الإسلام وتتوالى أرزاقه ونِعَمه، فتصحو، وتقوى، وتنشط، ثم تتهيأ لتأخذ من جديد مكانها عزيزاً، مكيناً، هادياً، سوياً.

ينشرح صدر المؤمن (والمؤمنة) لذلك، ويستبشر من غده خيراً، ويتوقع لأبنائه وأحفاده مستقبلاً أزهى وأرغد، ولأوطانه وقومه نجاحاً أوفر وأرشد، فيكافح ويجتهد: لأنه مأمور بالصبر والسعي؛ ومُلْزَم بالترقي والتقوى، ومُطالب بالإجادة والإتقان. وكل هذه حسنات وعبادات، ولكل منها عند الله درجة وجزاء، وهو تعالى لا يُضيع ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾(١).

وحُسن العمل ـ معيشة أو عبادة ـ لا يعني عند المؤمن الأداء والإتمام وكفى، وإنما يزيد عليه: الإتقان. وهي كلمة واسعة الإحاطة، ثرية المحتوى. إذ تشمل الإبداع والإمتاع، والتجميل والتحسين، والتهذيب والتزيين، وما يتطلبه كل ذلك من إدراك وتيقظ وعلم وحلم وورع وتدريب، حتى يصير «الإتقان» طبعاً وسمة، ويصير المؤمن (والمؤمنة) به خير عابد مُنْتِج في خير أمة.

هذا «الإتقان» ـ الذي يحبه الله وأوصى به رسوله ﷺ ـ نغفله أحياناً، وربما كثيراً، في سلوكنا وفي معاملاتنا اليومية، في كل المواقع، وعلى جميع المستويات، الخاصة منها والعامة، فيما يسميه الناس بـ «الذوق العام»، لكنه في منظور الإسلام ـ لو تأملنا جيداً ـ يحتاج إلى تعريف آخر، إذ يرتقي بالمسلم

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

وبالمجتمع درجة أسمى وأرفع، وهو موضوع هذا الكتاب.

(وموضوع الكتاب) ربما يكون جديداً، وأحسبه كذلك. والمرجع الوحيد فيه، كتاب الله تعالى الكريم المجيد ـ وهو دستور الأمة ـ القرآن الكريم. ويستطيع كل مؤمن (ومؤمنة)، بتوفيق من الله، أن يضيف إلى ما استنبطناه أو يصحح، فالمقصد أولاً وأخيراً تزيين حياتنا (عملاً وتعاملاً وسلوكاً وفكراً وقولاً...) بما يجعلها هادئة هانئة طيبة، وهو أمر لم يغفله القرآن العظيم، ولا نلتفت بدقة إليه. فهل من مُدَّكر؟...

فؤاد شاكر

الذوق الخاص . .
الذوق العام . . .
الذوق الإيماني

يقول الله تعالى في محكم التنزيل:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣) ﴾(١).

في الآية القرآنية الأولى: أمر بطاعة الله وطاعة الرسول محمد ﷺ فيما بلَّغنا عن ربه، وبما أوضح وبيَّن، وفيه خير الدنيا وسعادة الآخرة. ثم التوجيه القرآني بأن يكون المؤمن حَذِراً: حِذراً من وساوس النفس؛ حذراً من غرورها وهواها وغفلتها؛ حذراً من وساوس الشيطان وغوايات الأشرار. وباختصار: الحِذْرُ من كل ما يُخْرِج أو يُضل عن الطاعة الكاملة لله ولرسوله، أمراً، أو نهياً، أو ترجيحاً، أو استحساناً. .

ونتوقف قليلاً عند كلمة «الاستحسان». وهي من أصل كلمة «الحُسْن»، المصْدر. كم مَرَّة ورَدَت كلمة «الحسْن» ومشتقاتها (مثل: حَسَن، أحسن، الإحسان، الحِسان، الحُسْنى. .) في القرآن الكريم؟ أكثر من مائة وتسعين مرة، موزَّعة في السور القرآنية بمعانيها ودلالاتها المتنوعة. ألا يَلْفت ذلك نظرنا إلى شيء؟ نعم: إلى أن «الحُسْنَ» مطلوب عند المؤمن في كل قول، وسلوك، وعمل.

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٢ ـ ٩٣.

لنتأمل مثلاً قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾. الاستخدام هنا للمصدر.. لأصل الكلمة، ومنها يتفرع كل حَسَن، ومُبْدع، وجميل، في توجيه وعهد (من سياق الآية) لبني إسرائيل: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

بعد الأمر بالتوحيد والعبادة الخالصة لله، ثم الإحسان إلى الوالدين، وإلى ذوي القربى واليتامى والمساكين (وهذا كله يدخل في باب الذوق الإنساني الرفيع النبيل، كما سيأتي فيما بعد)، أَمَرَهُم سبحانه أيضاً أن يقولوا ﴿لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ ثم أَمَرَهم بعد ذلك بالصلاة والزكاة. كأنما «الحُسْن» في القول، ولكل الناس، هو التهيئة أو هو الأرضية الصالحة للعبادة: لإقامة الصلاة، وإعطاء الزكاة. كأنما كل من يَبَرُّ والديه ويُكْرِم الأقرباء والأهل واليتامى والمساكين، ثم يُحْسِن القول لفظاً وحديثاً ومخاطبةً وحواراً وبياناً وتبليغاً، يكون أقرب إلى حُسْنِ الإيمان، وحُسْن العبادة، وحُسْن الاقتراب من رحمة الله ورضوانه؛ وأقرب إلى الدخول الصحيح في الإسلام، والارتقاء السريع في مدارج الإيمان واليقين بإخلاص وثبات وصدق. ألا يُسْتَشَق هذا من الحديث النبوي الصحيح: «**خيارُكم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فَقِهُوا**»؟

المسلم المؤمن مطالَب بأن يَلْزَم هذا التوجيه: أن يقول للناس، لجميع الناس، لا قولاً حَسناً وحَسْب، وإنما يتحرى كل ما يستطيع من روافد الحُسْن، وِفْق ما يقتضيه الموقف أو المقام. لأن الحسْن يضم إليه: الرقة، والمودَّة، والحياء، والحلم، والعفة، والصدق، والرحمة، والإيثار، والأمانة، والسمو، والذوق الرفيع المستوى. وقد نجمع هذا كله وغيره، ونسميه ابتداء: الذوق الإيماني.

وما الفرق بين «الذوق الخاص»، و«الذوق العام»، و«الذوق الإيماني»؟!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

الذوق الإيماني: هو إضافة إلى الذوق الخاص بالفرد وإلى الذوق العام للمجتمع. هو إضافة تَصْدر عن وعي صائب «لروح» الإسلام، لجوهر الإيمان. هو «اللمسات» المهذَّبة والمزيَّنة للقول، للفعل، للتعامل والسلوك. ولو كانت كلها صحيحة سليمة، لكنها تبدو أجمل وأفضل وأكمل، وأكثر تقبلاً ومثوبة عند إضافة «الذوق الإيماني». ولنأخذ أمثلة. ودائماً من القرآن الكريم الحكيم، ومن السنَّة النبوية، ومن شواهد وسلوكيات الصحابة رضوان الله عليهم.

بداية، قد نتفق على أنه من عظَمة الخالق سبحانه وتعالى وإبداعه في الخَلْق: وَحْدَة الجنس، واختلاف النوع. فأنت ـ مثلاً ـ واحد من الناس، من الجنس البشري. لكنك تنفرد بصفات وسمات وخصائص تجعلك نوعاً متميزاً، مختلفاً، وحيداً. فأنت أنت لا تتكرر ولا تتطابق تطابقاً كاملاً مع غيرك من البشر مطلقاً، سابقاً وحالياً ومستقبلاً، وصدق الله القائل: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[1]... فلك إذن إدراك خاص بك، وفَهْم خاص، وتخيل أو تصور خاص، ومستوًى خاص بك في الانفعال والتفاعل مع المواقف، وفي التعامل مع الآخرين. ولك أيضاً ذوقك الخاص بك في شؤون الحياة اليومية: في الملبس والمأكل، في اختيار الأصدقاء والزوجة والعمل... الخ.

لكن هذا لا يعني أن اختلاف الأذواق بين الناس، يتكاثر ويتنوع بعدد سكان الأرض من البشر، فيكون التصادم والتضارب والصعوبة، وربما استحالة الاختيار والتعامل. لأنه مع انفراد كل إنسان بذوقه أو مذاقاته الخاصة، هناك الذوق العام للجماعة، أو المجتمع، أو الأمة. هذا الذوق العام يخضع لعوامل ومؤثرات كثيرة، ترتبط بالأسرة، والبيئة، والثقافة، والتقاليد، والأعراف، والبواعث النفسية والعقائدية والاجتماعية... لكنه ـ أي الذوق العام ـ يصنع شيئاً من «الضبط»، والانسجام، والتوافق إلى حدٍّ ما، مقبول ومطلوب، حتى يتآلف الناس في مجتمع

(١) سورة المدثر، الآية: ١١. ولعلماء الإنسان بحوث ودراسات مستفيضة في هذا التخصص.

معيَّن وتسودهم السكينة والرضى. إنه «شيء» مضاف، أو متمم للآداب، ومزيِّن للحياة.

ومثال بسيط:

أنت تفضل أو تميل وتستريح نفْساً إلى لون معيَّن في المَلْبس، وربما تفضل نوعاً من الأقمشة حسب قدرتك. لا حَرَج عليك في هذا، فهو مزاجك وذوقك، ذوقك الخاص. لكن الذوق العام للمجتمع الذي تعيش فيه وتتعامل معه لا يَقْبَل من الرجل أو الفتى أن يرتدي ملابس المرأة أو الفتاة، والعكس بالعكس. أو هو مجتمع يحترم العقيدة الإلهية وشرائعها فيُلزمك أن تستر بملابسك (رجلاً أو امرأة) ما أمر الله أن يُسْتَر، فتفعل. وعند هذا الحد، يكون قد تم المطلوب جوازاً، وقبولاً، وشرعاً: جوازاً لإرضاء المجتمع، وقبولاً لإرضاء نفسك (أو ذوقك الخاص)، وشرعاً بتنفيذ مطلب الدين والعقيدة.

ثم يأتي دور «الذوق الإيماني» المضاف: فيحذِّرك، ويمنعك أن تُسْرف أو تتكلف ما لا تطيق، لأن الله تعالى يقول في سورة الأنعام (الآية ١٤١): ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾. وفي سورة الإسراء (الآيتان ٢٦ ـ ٢٧): ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ حتى في الإحسان والصدقات. ولأنك تعلم من سيرة النبي ﷺ ومن شمائله (أي صفاته الراقية المتميزة) أنه نهى عن التكلُّف.

كما أن «الذوق الإيماني» يعصمك من التباهي والتفاخر أو الزهو بما تلبس، حتى لا تشعر في نفسك، في داخلك وما يخفيه صدرك، بالاستعلاء والخُيلاء والكِبْر. ففي الصحيحين (البخاري ومسلم) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن جَرَّ ثوبَهَ خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**». وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود، أنه ﷺ قال: «**لا يدخل الجنةَ من كان في قلبه مثقالُ حبة خردل من كِبْر**».

ويساعدك «الذوق الإيماني» على اكتساب ثواب وأجر عندما تلبس ثوباً جديداً

جاءك من مال حلال وكسب مشروع. فهو ينصحك ـ إن لم يفرض عليك ـ عند لِبْس جديد أو حَسَن جميل من الثياب، شُكْر الله تعالى الواهب الرازق المُنْعِم وكان من دعاء النبي ﷺ في هذا الصَّدد: «**الحمد لله الذي رزقني هذا دون حَوْل مني ولا قوة**». فالشكر والحمد على النعمة، مطْردة للشعور السيىء بالكبرياء والزهْو، ورد العطاء والثراء والقُدرة إلى مالك المُلك ورازق الخَلْق، وأنت تحفظ قول الحق تعالى؛ بل وَعْده: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

ولذا، فإن الذوق الإيماني يَفْرض على المؤمن أن يقدِّم الشكر لكل مَن أسدى إليه خدمة أو معروفاً. وفي القرآن الكريم: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[2]؛ وفي سورة البقرة[3]: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ وفي سورة الزمر[4]: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾. ولكن للأسف، كما جاء في سورة غافر[5]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾. هذا معناه: قِلَّة، أو انعدام الذوق.

إن الذوق الإيماني يلازم كل قول، وفعل، وسلوك في حياة المؤمن أو المؤمنة، ساعة بساعة، لأنه ملازم لنص الإيمان الصادق الواعي المكين. وإن شئت، فالذوق الإيماني مقياس ذاتي ومعيار للتفاضل، إذا تساوت الصلاحية في الأعمال والواجبات والآداب وأداء الحقوق. ويمكن تشبيه ذلك بطالبين (وكلنا يطلب الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة): أحدهما يكتب إجابة عن سؤال في ورقة، وبجواره آخَر يكتب إجابة عن نفس السؤال. كلاهما يَسْرد إجابة صحيحة وفق ما هو معروف ومألوف. لكن هذا يكتب بخط رديء وبلا اكتراث أو تنسيق، وذاك يحسِّن خطه ويجمِّله، ويرتِّب العَرْض ويزيِّنه. هل يستويان مثلاً؟!

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٦١.

قد يبدو الأمر عند البعض بسيطاً هيناً، ولكن ليس كل ما نَحْسبه كذلك، يصير خفيف الوزن قليل القَدْر. بل لعله أكبر وأخطر مما يُظَن. ألم يحذِّرنا الله تعالى في سورة النور: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾؟[1] وكلمة «عظيم» هنا هي نفسها التي وُزِنَت بها وقُدِّرت كل شمائل النبي ﷺ وصفاته الوضَّاءة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[2].

وهنا تلزم وقفة:

في الصلاة والسلام على النبي تحية ودعاء. وفيها أثر ـ واجب أو مستحَب ـ من الذوق الإيماني نحو خاتم الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. والتحية في الإسلام، في ذاتها بشكل عام، تَحمل لمسات من الذوق الإيماني المتميز، رفيع المستوى. كيف؟ ولماذا؟ لأن إلقاء التحية متروك للفرد، إن شاء حيَّا، وإن شاء سَكَت (وإن كانت التحية من السُّنَّة). لكن ردّ التحية فَرْض يجب على المسلم أداؤه. يقول تعالى في سورة النساء: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾[3].

في رد التحية ذوق إيماني محسوب مرغوب مطلوب. لأن الامتناع عن الرد يُسيء من جهة إلى المحيِّي أو المسلِّم، وقد يُشْعره بالهوان وخَدْش الكرامة؛ ومن جهة أخرى قد يُظن في الذي لم يَرُد خسيسةَ الاستعلاء أو الكبرياء، أو سوءَ النية والطوية، وهذا كله مكروه ممقوت في الإسلام، ظناً أو حقيقة واقعة.

والعجيب المدهش حقاً، أن القرآن الكريم وقف عند هذه «الجزئية» التي ربما نراها بسيطة هينة، ووضع لها «قانوناً» غاية في التهذيب والرقة والذوق، ثم فسَّرت السُّنة النبوية آداب التحية في مواقف الحياة المختلفة، وبين الكبير والصغير، والراكب والماشي، والقائم والقاعد. في حين أن القرآن لم يبين بالتفصيل مثلاً

(١) سورة النور، الآية: ١٥

(٢) سورة القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٦.

كيفية الصلاة ومواقيتها، وهي ركن ركين من أركان الإسلام، وأول ما يُحاسَب عليه المسلم من عمل يوم القيامة.

ثم يَلْفت النظر أيضاً، أن الآية الحكيمة تقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ أي بأية تحية، وبأي لسان أو صيغة، وليس فقط بتحية الإسلام المعروفة: السلام عليكم، ويكون الرد عليها إما بمثلها، وإما «بأحسن» منها. والأحسن ـ يقيناً ـ ينُمّ عن الذوق الإيماني الرفيع.

ويأخذ الذوق الإيماني مع التحية أشكالاً بهية زاهية، تختلف باختلاف المواقع والمواقف. فمثلاً: عندما تدخل بيتاً زائراً ترفع صوتك قليلاً بالتحية (السلام عليكم) ـ بلا صخَب ـ قبل أن تدخل، أو قبل أن يُفتح لك الباب. لماذا؟ حتى يطمئن إليك أهل البيت، ويعرفوا أنك قادم بسلام ووئام. وأيضاً لكي يتبيَّنوا من صوتك المميَّز مَن أنت. ولكن ـ وهذا كله من السُّنة المهذبة ـ إذا دخلت بيتاً ليلاً، ولو كان بيتك، أولى بك أن تُحيِّي بصوت خافت قليلاً يسمعه المتيقِّظ ولا يوقِظ النائم. وإذا دخلتَ على القاضي في مجلس القضاء (بالمحكمة) وكنتَ طرفاً أو خصْماً في قضية، فإن الذوق الإيماني يمنعك من تحية القاضي، ويعفيه هو من الرد عليها إذا حيَّيْته. وهذا حق وصواب: لأن الخَصْم في قضية لا يليق به أن يُعطي إيحاء بالشك في وجود علاقة بينه وبين القاضي. ومن ناحية أخرى، إذا قال الخَصْم ـ أو المتَّهم ـ للقاضي: السلام عليكم، فردَّ عليه القاضي: وعليكم السلام، كان هذا في ذاته «حُكماً» مسبقاً منه يضمن السلامة، وربما كان يستحق العقاب أو الزجر أو القصاص.

إن تعبير «السلام عليكم» يحمل في ثناياه وعداً بالمسالمة والأمان، وتقديم الاطمئنان. فإذا قلتُ لك: السلام عليكم، فإن ذلك يعني أنك آمن سالم من جانبي، لا أخدعك ولا أخونك، لا أغشك ولا أغبنك، لا أُروِّعك ولا أؤذيك، لا أفشي سر مجلسك، ولا أغتابك بعد أن تقوم من مقامك. لأنه وعد: سلام عليك، أو عليك سلام منِّي. فإذا أضفتُ: «ورحمة الله...»، فهو دعاء لك بالرحمة والبركة، أثمن هدية تُقَدَّم، وأفضل ما أرجوه لك من الرحمن الرحيم.

كذلك الأمر في العبادة. مثلاً: يقْضي الذوق الإيماني بأن يخفف الإمام ـ في الصلاة الجامعة ـ من صلاته رحمةً بالمأمومين لأن فيهم العجوز والضعيف والمريض والأم المرْضِع. فإذا صلى بمفرده طوّل ما شاء. وكذلك خطيب الجُمُعة، يُلزمه الذوق الإيماني تقصير الخُطبة، مخافة الإرهاق والإملال واستجلاب التشويش والنسيان. فيكون في تقصيره مع بلوغ قَصْده، دليل على «حُسْن» فَهْمه و«استحسان» رُشْده.

وبالرجوع إلى الآيتين من سورة المائدة اللتين بدأنا بهما هذا الباب، نلاحظ أن كلمة ـ أو صفة ـ «آمَنُوا» ذكرت ثلاث مرات. وأن كلمة ـ أو صفة ـ «اتَّقَوْا» ذكرت ثلاث مرات. وكذلك الوصف بأنهم «عملوا الصالحات» ذُكر مرّتين. وبعد ذلك يأتي في الختام الوصف بأنهم «أحسنوا» يُذْكر مرة واحدة. فكان من الجائز أو المتوقع أن ينتهي السياق بالإشارة إلى أن الله يحب المؤمنين، أو المتقين، أو الذين يعملون الصالحات. ولكن، لحكمة بالغة، يتجه الختام الواعد مباشرة نحو الذين «أحسنوا» فيقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

ها هنا تبرز وضّاءةً مُنَبِّهة قيمة الحُسْن، والإحسان، والتحسين، والذوق الإيماني الحَسَن، بعد الإيمان، والتقوى، والأعمال الصالحات. إنه التَّتمة، والتكملة، واللمسات الأخيرة الجميلة: في القول، والفكر، والضمير، والعبادة، والعمل، والتعامل، وفي كل أداء وسلوك.

فهل يستوي الذين «أحسنوا» والذين لا يُحْسنون؟! ألا إن الله صادق الوعد: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾(١).

(١) سورة يونس، الآية: ٢٦.

بيت السَّكَن
أهل الدار
وفاق وشقاق

ما منَّا من أحد ـ في الأغلب الأعم ـ إلا وله بيت يُؤويه أو دار تحميه، أو موضع يسكن فيه ويتحرر داخله، قصراً، أو منزلاً، أو شقة، أو كوخاً، أو خُصّاً[(١)]، أو خيمة.. أيًّا كان حجمه أو اتساعه، بهاؤه أو انزواؤه، فالكل في نظر الشرع وتقديره سواء: من حيث الرعاية والصيانة، والحُرمات والواجبات، لأن هذا مستقر إنسان، وذاك مسكنٌ لإنسان، و«الناس لآدم وآدم من تراب».

إذا كانت القوانين الوضعية تحوط بيت السكن بسياج من الضوابط والقواعد الحافظة الرادعة، حماية لساكن البيت وخصوصياته وما يحرر أو يحتاز[(٢)] فيه، فإن الإسلام العظيم، بآدابه وبتشريعاته وتوجيهاته التي ترقى بالذوق الإيماني الرفيع، لم يغفل هذا الجانب، بل قدَّمه في البيان القرآني، وفي التفسير العملي النبوي، على كثير من الطاعات والعبادات. وتلك أمثلة:

في سورة النور يقول الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ

(١) الخص (بضم الخاء): بيت من بوص أو عيدان النبات الجاف.
(٢) يَحْرز: يضع في مكان آمن حصين. يَحُوز: يتملك أو يضم شيئاً إلى نفسه.

ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ
مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ
وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ
وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ
إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي
ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا
يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[1].

الآيات القرآنية هنا واضحة المقصد والتوجيه تماماً في بسط آداب الزيارة لبيوت الغير ومساكنهم. والخطاب فيها موجّه إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، لأن الإسلام: إقرارٌ باللسان، والإيمان: «ما وقر في القلب وصدّقه العمل»، أي يقين ثابت راسخ يصدر عنه سلوك يتسق مع ما أمر الله تعالى به أو نهى عنه.

يظهر من البداية «حضور» الذوق الإيماني الممهد والمصاحب لآداب الزيارة التي وردت في الآيات، وتناولها كثيراً الشرّاح والمفسّرون. هذا الذوق الإيماني يتمثل في كلمة «تستأنسوا» التي تحمل أيضاً معنى الاستئذان. وتلك لمسة مدهشة بديعة راقية، لا يمكن أن تجد لها موضعاً أو نظيراً في أي تشريع إنساني أو قانون أخلاقي إلا في الإسلام. كيف؟

لأن طلب الإذن بالزيارة ـ لبيت أو مسكن ما ـ وإجابة هذا الطلب (من أصحاب البيت) في منظور الإسلام وعند أهل الإيمان لا يكفيان. يسبق ذلك: المقصد والنية باستحضار الأُنس، واستصحاب البشاشة والتلطف والوُدّ. لأن الزيارة مظهر اجتماعي، وبها تتوثق الروابط الطيبة وتتجدد الوشائج النبيلة. والإسلام حريص على تنمية ذلك وشيوعه في مجتمع الإيمان. وهو إذ يحيط البيت أو مسكن الأسرة بسياج متين من الحماية والرعاية والأمن، يضع زيارة أهله في إطار من

(١) سورة النور، الآيات: ٢٧ ـ ٣١.

الضوابط تستجلب البهجة الراقية، والمتعة المنزهة عن الابتذال واللغو السقيم المرذول. ويترتب على ذلك أن تخلو الزيارة من إساءة، أو غيبة ونميمة، أو جنوح إلى ما لا يرضى عنه الله ورسوله، لأن هذا كله مذموم ممقوت لا يتحقق به عند المؤمنين الصادقين إمتاع وأُنس، وفي تقديرهم دائماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾[1].

ثم تذكُّر الزائر ـ أو الزوار ـ بالسلام على أهل البيت. وهل من حاجة إلى التذكِرة بشيء هو بداهة مألوف معروف؟. نعم! لأن السلام ـ أي التحية ـ في الإسلام صيغته: «السلام عليكم..»، فهو دعاء ورجاء، يضاف إليه هنا في مبتدىء الزيارة إدخال السكينة والأمن على نفوس أهل البيت المُزار. فالقادم يدخل بسلام، ويقضي مجلسه في سلام، ويخرج من زيارته بسلام، مصحوباً بمثوبة من الله وأجر، لأنها إذا كانت زيارة أهل فهي صلة رحم، وإن كانت زيارة جيران فهي توثيق لحُسْن الجوار، وإن كانت لأُخُوَّة وصداقة فهي تعاون على البر والتقوى، وإن كانت عيادة مريض فهي سُنَّة واجبة، والله من وراء القصد. فالسلام إذن شرط لازم، وتأكيد للذوق الإيماني الذي يمنع ـ حياء وتعففاً ـ دخول بيوت ليس فيها أهلها (كأن يكون فيها الخادم فقط مثلاً)؛ وهو الذوق الإيماني الذي يرفع الحرج عن المؤمن إذا لم يجد استجابة من أهل البيت لاستئذانه، أو إذا شعر أن الزيارة غير مناسبة لهم (وبالتالي تفقد معنى الأُنس)، أو إذا طلبوا منه صراحة تأجيلها، فينصرف سليم الصدر غير عاتب ولا غاضب، وذلك بنص الآية القرآنية، وقد فعل النبي ﷺ ذلك وأعطانا فيه المثل: زار يوماً بيت أحد الصحابة، فطرق الباب في رفق وهو يقول: «السلام عليكم ورحمة الله». ثم انتظر ولم يسمع إجابة. فطرقه ثانية وهو يُعيد السلام، ثم انتظر ولم يسمع إجابة. فطرق الثالثة مع تكرار السلام، فلما هَمَّ بالانصراف، إذا بالباب يُفتح ويندفع خارجاً منه الصحابي فيحتضن النبي ﷺ، ويقول: لقد سمعناك يا رسول الله من أول مرة، لكننا أردنا أن نزداد بركة من تكرار دعائك لنا بالسلام والرحمة. فهل لنا الحق بعد ذلك أن نزعج ـ عند

(١) سورة النساء، الآية: ٨٦.

الزيارة ـ سكان البيت بطرقات شديدة أو دقات جرس متواصلة، أو رنين تليفون طويل مُقْلق (وهو نوع عصري من الاستئذان)؟ إن هذا كله ينافي السنَّة النبوية الحكيمة، ويفتقر إلى الذوق الإيماني الرشيد. والأحمق من ذلك وأرعن استخدام بوق السيارة كنداء، كما سيأتي.

لبيوت السكن في مجتمع الإيمان حقوق وحُرمات، والذوق الإيماني يحرص كل الحرص على رعاية تلك الحقوق ويصون حُرماتها. وفي قضاء النبي ﷺ، كما جاء في الصحيحين: «**مَن اطَّلع** (أي اختلس النظر عامداً متفحصاً) **في بيت رجل بغير إذنه فحذَفَه** (رماه صاحب البيت) **بحَصاة ففقأ عينه فلا شيء عليه**». وفي كتب الأحاديث النبوية ما رواه النَّسائي عن رسول الله ﷺ: «**من اطَّلَع في بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فلا دِيَة له ولا قِصاص**». ويروي أنس (رضي الله عنه)، وكان يخدم النبي ﷺ، أن رجلاً اطَّلع من بعض حُجَر النبي (وفي رواية: من ثُقب الباب) فقام إليه ﷺ بمِشْقَص، يقول أنس: فكأني أنظر إليه (أي النبي) يَخْتِلِ الرجل ليطعَنَه[1].

وشيء آخر يبدو بسيطاً لكنه يتسم بالذوق الإيماني العفيف الشريف، لأنه مستمد من هَدْي النبي ﷺ. فقد روى الطبراني عن عبد اللَّه بن بُسر رضي الله عنه قوله: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا تأتوا البيوت من أبوابها**[2]، **ولكن ائتوها من جوانبها فاستأذنوا، فإن أُذن لكم فادخلوها وإلا فارجعوا**». وهكذا كان يفعل صلوات الله عليه. يقول الرواة: كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول: «**السلام عليكم**».

ويصحبنا الذوق الإيماني داخل البيت، حتى في بيت الأهل والأسرة. ففي الموطأ عن عطاء بن يسار رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أستأذن على أمي؟

(١) مِشْقص (بكسر الميم): سهم له نصل عريض طويل. يَخْتل: يتأهب للانقضاض عليه.
(٢) أي: إذا جئتم بيتاً للزيارة فلا تقفوا في مواجهة الباب مباشرة، ولكن عن يمين أو يسار حتى لا يقع نظر الزائر إذا فتح الباب فجأة على شيء أو أحد لا يحب صاحب البيت أن يراه.

قال: «نعم». ويُشع الذوق الإيماني فيضاً من البر والبهجة والرحمة، بين الآباء والأبناء، مع توقير الكبير وتكريم الصغير. يروي النَّسائي والترمذي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كانت فاطمة (الزهراء) إذا دخلتْ على النبي ﷺ(١) قام لها فأخذ بيدها (للتحية) وقبَّلها وأجلسها في مجلسه وكان إذا دخل عليها(٢) قامت إليه وأخذت بيده فقبّلتْه وأجلستْه في مجلسها.

ولا يقف الاستئذان ومراعاة الذوق الإيماني داخل البيت عند هذا الحد، بل يتجاوزه إلى ما هو أخص وأدق، فيضع الإسلام قانوناً قرآنياً يحفظ للكبار خصوصياتهم واستمتاعهم بحرياتهم، ويربي الأبناء الصغار والعاملين في المسكن على احترام ذلك، وعلى الانضباط المهذب الوقور، في التعامل، وفي العلاقات، وفي اجتناب التجاوز والتسيب والتفريط، أو الإساءة إلى الآخرين. فيجعل للكبار ثلاثة أوقات (أو ثلاث فترات) في اليوم لا يجوز الدخول عليهم فيها إلا بإذن: قبل صلاة الفجر (الصبح) حيث الاستيقاظ من النوم واستبدال الملابس والتهيئة الواجبة للصلاة، وفي الظهيرة وقت القيلولة، وفي آخر اليوم عند الاستعداد للنوم. يقول تعالى للمؤمنين(٣):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ ﴾.

وواضح من النص القرآني أن ختام كل من الآيتين الكريمتين يشير إلى أن هذا الترتيب أو التنظيم هو آية من آيات الله العليم الحكيم: فكما أن خَلْق السموات والأرض من آيات الله في الإبداع والتكوين والتنظيم والقُدرة، كذلك فإن اتباع

(١) أي في بيته.
(٢) في بيتها.
(٣) سورة النور، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

أمره تعالى في هذا الجانب داخل البيت، وعلى هذا النسق من الترتيب والتنظيم يُفضي حتماً إلى الاستقامة وتكوين البيئة الأسرية السليمة القويمة الصالحة.

والمدهش ـ مرة أخرى ـ أن القرآن الحكيم يذكر هذا كله في آياته البيِّنات، واضحاً مفصَّلاً، بينما لم يبيِّن بالتفصيل أحكام الصلاة ومقادير الزكاة، وهما ركنان أساسيان من أركان الإسلام، وترَك للرسول الأمين ـ صلوات الله عليه ـ بيان أحكامهما وشروطهما. إن في هذا لتذكرة وتبصرة، وأن الإسلام والقرآن والسنَّة منهاج حياة وطريقة فلاح ونجاح للأحياء على مستوى بديع رفيع من الصفاء والنقاء والذوق. والأعجب من ذلك وأبدع، أن رسول الإسلام ﷺ الذي جاءنا بهذه الآيات البيِّنات من الآداب الإنسانية الفريدة المبهرة والأذواق الرفيعة المهذبة، لم يتلق قبل المبعث دروساً في قواعد وأساليب وأنماط السلوك في بلاط ملوك أو ترتيبات قصور (مما نسميه اليوم البروتوكول أو الإتيكيت)؛ كما أن أول مَن تلقى منه هذه الآداب والأذواق ـ بالقرآن وبسلوكه وأحاديثه المعلِّمة المرشدة ـ عرب كانوا إلى البداوة والخشونة أقرب. وقد رُوي أن أعرابياً جاء إلى مسجد المدينة ليصلي مع جماعة المسلمين، فربط ناقته بالباب، ثم دخل فأحَسَّ بحاجته إلى التبول، فانتحى ركناً من المسجد (وكانت أرضيته من الحصى) وجلس يقضي حاجته، فأسرع إليه جماعة من المسلمين يصيحون فيه وهمُّوا أن يضربوه، فمنعهم رسول الله ﷺ قائلاً لهم: «لا تُزْرِمُوه»[1]، ثم أمرهم أن يرشدوه ويعلِّموه برفق.

وكما أن المسجد هو بيت الله للصلاة والعبادة وواجب على زواره التزيُّن والتطهر كما جاء في الآية ٣١ من سورة الأعراف: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾، فإن الذوق الإيماني يحبِّب إلى

(١) أي: لا تفزعوه وتقطعوا عليه التبول فقد يصاب بألم أو ضرر، وهو معذور بجهله بآداب المسجد واتباع الذوق الحسن. وفي هذا الموقف درس رائع كبير في الرفق والرحمة بالناس، وردع وزجر للذين يلجأون إلى الخشونة والغلظة والعنف المرذول العاري من الذوق وفقه السنَّة، بحجة الوعظ أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المؤمن أن يحافظ على نظافته وزينته وحسْن هيئته في كل وقت ـ لأنه دائماً في طاعة وذكر لله ـ حتى في بيته وبين أهله؛ بل إن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كان يرى أنه فرض واجب على رب الأسرة ـ الزوج القائد ـ كما عبَّر عن ذلك عبد اللَّه بن مسعود بقوله: إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ ﴾[1].

وهو ـ أي ابن مسعود ـ الذي روى حديث رسول الله ﷺ، كما جاء في صحيح مسلم: «**إن الله جميل يحب الجمال**». فإذا رجعنا إلى ما جمعتْه كتب السيرة النبوية وجوامع الأحاديث، نجد أن ما ذكره الصحابة وما وصفوا به رسول الله ﷺ في بيته وبين أهله، آيات في الجمال والحُسْن والذوق الرفيع، جديرة بأن تكون للبشر جميعاً مثالاً عظيماً وقدوة. ومنها:

● كان حَسن المعاشرة، حَسن الخُلق، يقول: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**».

● كان طويل السُّكُوت، لا يتكلم في غير حاجة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، ولا يتكلم إلا فيما يُرجَى ثوابه.

● كان في بيته في مِهْنة أهله (أي أعمال البيت): يَحْلب شاته، ويَرْقَع ثوبه، ويَخْصف نَعله، ويخدم نفسه، ويَقُم (يكنس) بيته، ويَعْقل (يقيد) البعير، ويَعْلف ناضِحه (البعير الذي يستقى عليه)، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق. (من حديث عائشة).

● كان يجلس على الأرض، وعلى الحصير، وعلى البساط، وكان يتكيء على الوسادة، وربما اتكأ على يساره، وربما اتكأ على يمينه.

● كان لا يَرُد موجوداً، ولا يتكلَّف مفقوداً؛ فما قُرِّب إليه شيء من الطيبات (أي الحلال) إلا أكله، إلا أن تَعافه (أي لا تميل إليه) نفسه فيتركه من غير تحريم.

● وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه.

---

(١) سورة ابقرة، الآية: ٢٢٨.

● لم يكن يَرُد طيِّباً ولا يتكلفه. يأكل ما تيسر، فإن أَعْوزه (أي إذا لم يجد) صَبَر. يعظِّم النعمة وإن دقَّت (صغرت) لا يَذُم شيئاً.

● وكان معظم مَطْعمه يوضع على الأرض. وكان لا يأكل مُتَّكئاً. وكان يقول: «**إنما أنا عبد (لله) آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**».

● كان يُسَمي الله تعالى أول طعامه ويحمده في آخره، فيقول: «**الحمد لله الذي يُطْعِم ولا يطعَم**»، أو: «**الحمد لله الذي أطعَم وسقَى وسوَّغه**»(١).

ـ قال أبو الطفَيل: رأيت النبي ﷺ وأنا غلام، فدَنَتْ (اقتربت) منه امرأة، فبَسَط لها رداءه، فجلسَتْ عليه. فقلتُ: مَن هذه؟ قالوا: أُمه التي أرضعتْه (أي مُرضعته).

● كان يبعث إلى «ثُوَيْبة» مولاة أبي لهب (أول من أرضعتْه قبل حليمة السعدية) بصِلَة (أي هدية) وكِسْوة، إلى أن ماتت.

● لما جِيء بأخته من الرضاعة «الشيماء»(٢) في سبايا هوزان، وتعرَّفت له، بسط لها رداءه، وقال لها: «**إن أحببْتِ أقمتِ عندي مكرَّمة مُحَبَّة، أو متعتُكِ**(٣) **ورجعتِ إلى قومك**». فاختارت قومها، فمتَّعها.

● كان إذا أُتِيَ بهدية قال: «**اذهبوا بها إلى بيت فُلانة؛ فإنها كانت صديقة لخديجة (أم المؤمنين)، إنها كانت تحب خديجة**»(٤).

ـ ودخلتْ عليه امرأة فهشَّ لها(٥)، وأحسن السؤال عنها(٦) فلما خرجتْ قال:

---

(١) أي: سهَّل أكْله وشُربه وتَقبُّله.
(٢) ابنة حليمة السعدية.
(٣) أي: أعطيتُك شيئاً صلة للرحم.
(٤) وذلك بعد وفاتها رضي الله عنها.
(٥) أي: أظهر السرور بزيارتها له.
(٦) أي: الترحيب بها.

«**إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان**»[1].

ـ صلى، عليه السلام، وهو يحمل على عاتقه[2] «أُمامة» ابنة ابنته، فإذا سجد وضعها (على الأرض)، وإذا قام حَمَلها.

● كان أعذَب الناس كلاماً، وأحلاهم منطقاً. لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخَّاباً. يَضحك مما يُضحك منه، إذا رأى ما يَسرُّه تبسم. لم يكن ضحكه برفْع الصوت ولا قهقهة، فجُلّ (أي معظم) ضحكه التبسم.

● كان الطِّيب (العطر) من أحب الأشياء إليه، ويُكثر التطيب. وكان لا يَرد الطِّيب (كهدية). وكان أحب الطيب إليه المسك.

● ودخل عليه رجل وهَمَّ أن يقبِّل يده، فجذبها النبي ﷺ وقال: «**هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها، ولستُ بملِك، إنما أنا رجل منكم**».

● قالت عائشة: ما خُيِّر رسول الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه.

● وعندما مات ابنه إبراهيم دمعَتْ عيناه وبكى وقال: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون**».

هذا بعض ما وُصف به رسول الله ﷺ في بيته من أقرب الناس إليه، وأصدقهم حديثاً عنه (وهو قليل من كثير). فهل يجد «الذوق الإيماني» نموذجاً عملياً فيّاضاً وضّاء يستمد منه حُسناً وجمالاً وبراً ورحمة وإنسانية أفضل من هذا وأكمل؟!

ثم يمضي بنا الذوق الإيماني ـ في النص القرآني ـ إلى مراعاة الحذَر أثناء الزيارة، سواء من جانب الزائر (أو الزوار)، أم من جانب أهل الدار. فتأمرنا الآيتان التاليتان مباشرة بعد الاستئناس (وفيه الاستئذان) والسلام ودخول الأماكن الخاصة

---

(١) أي: حُسن رعاية العهود القديمة.
(٢) كتفيه.

بالتحرُّز من التفحُّص والتلصُّص وتعمد النظر إلى ما لا يليق النظر إليه من أشخاص وأشياء[1]. يقول تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[2].

ويترتب على ذلك، أن يصون الزائر حُرمات البيت، ليس فقط بغض البصر أثناء الزيارة، وإنما أيضاً بالامتناع عن إفشاء الأسرار بعد الزيارة، والتحدث إلى الأغيار بما لا يجب إطلاعهم عليه أو سماعهم به. فللمجالس أماناتها وحُرماتها. ولذا صاغ الشاعر العربي الحصيف هذا المعنى فقال:

إذا دخَلْتَ البيوت فالْبَسْ ... من التوقِّي أعزَّ مَلْبَسْ
وادخُلْ إذا دخلتَ أعمى ... واخرُج إذا خرجْتَ أخْرس

فإن كان في بيت السكن والأسرة زوج وزوجة، ففي شريعة الإسلام قرآناً وسُنَّة، ما لا يوجد نظيره في أي تشريع آخر، من قبل ومن بعد، مهَّد وكفَل ونظَّم الحقوق والواجبات التي تُثمر الأُلفة والتراحم والعزة والكرامة والهناء للزوجين، ثم إنجاب الذرية السعيدة الصالحة، إذا ما التزم الجميع ـ بأمانة ووعي وصدق ـ بمنهج الإسلام الصحيح، دون زيادة أو تحريف أو نُقصان. فليس كل ما يفعله المسلمون

---

(١) تكفي الإشارة هنا إلى ما رواه أبو داود والترمذي عن أم سَلَمة رضي الله عنها قالت: كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميمونة (رضي الله عنها) فأقبل ابن أم مكتوم وذلك بعد أن أُمرنا بالحجاب فقال النبي ﷺ: «احتجبا منه» فقلنا: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يُبصرنا ولا يعْرفنا؟ فقال النبي: «**أفعَمْياوان أنتما؟ ألستما تُبصرانه؟**».

(٢) سورة النور، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

اليوم ـ كما كان بالأمس أو في الغد ـ صادراً عن إسلام سليم أو إيمان أمين، وربما أساء بعضهم إلى دينهم وأنفسهم وأمتهم، إما عن حماقة وجهالة، وإما عن تطرف وشطط، كما قال تعالى في سورة الكهف (الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤): ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾. إنهما آيتان دامغتان صافعتان لأولئك الذين يستهزئون بالدين ويسخرون من المؤمنين؛ وهما أيضاً آيتان تحملان تحذيراً وتنبيهاً للمؤمنين والمؤمنات، للأزواج والزوجات، أن يتقوا غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة، إذا زاغوا عن أمره، أو بَدَّلوا وفرَّطوا في أداء واجباتهم أو تحمُّل مسؤولياتهم، ولو بقصد التحسين و«التحديث» و«التطوير». ولسنا هنا في مجال بيان الحقوق والواجبات الزوجية والأسرية، فقد بسطها العلماء بإفاضة، وتناولها الشرَّاح بإسهاب من بداية اختيار الزوج (أو الزوجة) إلى مفارقة أحدهما الآخر بالموت، أو الطلاق.

ونتوقف عند الطلاق!

مألوف معروف في كل الدنيا وبين جميع الأمم والشعوب أن الزواج ـ إلا في حالات نادرة ولظروف خاصة ـ يتم في أجواء من البهجة والسرور والأفراح والانشراح. لا مشكلة إذن! أما في أجواء الطلاق ـ وهو حق للزوج وحق للزوجة دون الدخول في تفصيل ذلك ـ فلا نظن أنه يتم إذا لم يكن منه بُدّ في ابتهاج ومسرات وزينة، إلا في حالات أيضاً شاذة نادرة لا يُعْتد بها. وهنا تقع المشاكل والأزمات وتتدافع، وتتسارع، وتتعقد، وربما أفضت إلى جرائم وفضائح، أو على الأقل إلى ما يُغضب الله تعالى ويناقض شريعته ودينه الحق القويم، ثم ـ للأسف ـ يُحْسَب هذا على الإسلام ويُعاب به المسلمون!

وإذ نُمسك بخيط «الذوق الإيماني» الوضَّاء، الذي نتبين به الأبيض من الأسود، نراه يُظهر عجباً حين نقرأ الآيات القرآنية من سورة البقرة التي تتناول أمور الطلاق (الآيات ٢٢٨ ـ ٢٣٧) فيما نحن بصدده، ولنتأملْها معاً:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ

بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا
يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)
فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا
حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ
هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا
بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ
رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى
الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ
مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ
النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا
قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ
تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)
وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ
يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾.

بداية، عندما يَسمع ويَفهم عاقل واعٍ أمين هذه الآيات البيِّنات المحكمات، لا بد وأن يقول شيئاً قريباً مما يقوله المؤمن الراشد الصادق: سبحان من هذا كلامه، وجلَّ وعزَّ من هذا تشريعه وإحكامه. ولو أنصف المشترعون في كل بلاد العالم وصدقوا مع أنفسهم أولاً، لجعلوا هذه الآيات القرآنية «مادة» دراسة وتحليل

لمعرفة كيف تُسنّ القوانين ـ الاجتماعية الأُسرية خاصة ـ على أعلى مستوى رفيع دقيق من التوازن والضبط والعدالة والإتقان، فضلاً عما تضمه من قيم ومبادىء وأذواق إيمانية لا يدركها إلا العارفون. إنها ـ أي تلك الآيات ـ بحق شاهد ودليل على إعجاز القرآن، وعلى أنه يستحيل ـ نعم يستحيل ـ عقلاً ولغة وصياغة وتقنيناً أن يكون من عند غير الله، أو من صنع بشر.

في أشد الحالات ضِيقاً وكرباً داخل الأسرة، وأكثرها إيلاماً للنفس وتشتيتاً للذهن عندما تتمزق الروابط الزوجية، وتُستنفَد كل وسائل الإصلاح والوفاق، ولا يبقى من سبيل إلا الطلاق، يتقدم الإسلام ـ بتشريعه القرآني المحكم ـ لينشر مظلته الرحيمة الواقية ليقيم العدل، ويدفع الظلم، ويرفع العَنَت، ويرَشِّد الغضب، ويحفظ للزوجة ـ وهي الأضعف عادة ـ حقوقها وكرامتها، ويذكِّر الزوج بمسؤولياته وواجباته الإنسانية التي استمدها من عهد الله وميثاقه ـ إن كان مؤمناً حقاً ـ في مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[1]؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[2]؛ وفي حديث النبي ﷺ المشهور: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راعٍ في أهل بيته...**». ومن خُطبته ﷺ في حجة الوداع: «**ألا واستوصوا بالنساء خيراً...**».

في هذا الموقف الشديد الضاغط، عند الشقاق والفراق، نرى الآيات القرآنية تحذِّر كلاً من الرجل والمرأة أن يتجاوزا الحدود، أو أن يبلغ بهما الغضب والشطط درجة الخصومة الآثمة، والعناد الساخط المجحف. ويلزمهما ـ معاً ـ بحقوق الأبناء وخاصة المولود الرضيع. فالفُرقة قد تورث البغضاء والشَّحناء والعناد السقيم، فيُضار الوليد؛ وقد يتزوج الأب بأخرى، وتقترن الأم بزوج آخر، فألزمهما الله

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

الحكيم الرحيم برعاية حقوق أبنائهما الذين لا ذنب لهم ولا جريرة. والملفت للنظر أن الآيات القرآنية هنا لا تقول «الأب» أو «الوالد» وإنما: «المولود له» في حين أن الآية ٣٣ من سورة لقمان تصفه بالوالد: ﴿ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾[1]، لماذا؟ لأن الآيات في سورة البقرة ـ التي نحن بصددها ـ تتناول موقفاً يغلب عليه الضيق والغضب، وربما الحقد والسخط، مما قد يجمح بالمشاعر فتطمس الحكمة والتعقل والرشد؛ فتذكّر الآيات بحقيقة واقعة لا فكاك منها أو تملص: وهي أن الولد، أو الطفل الوليد، الذي لا حول له في هذه السن ولا قوة، هو جزء من الأب، جاء من صُلبه، ويحمل اسمه، وإليه ينتسب، وبه يُعرف، فلا يجب إذن أن يغفل «المولود له» هذا الابن، حق الإنفاق على ابنه ـ أو ابنته ـ وأداء ما يجب عليه من رعاية وتربية قدر ما يستطيع، وعلى أقل تقدير تعويضه عن فقدان بيئة الأسرة السعيدة المترابطة، والتنشئة في كنف الأب والأم معاً.

ولئن كان المجال لا يتسع لبيان الأحكام الواردة في تلك الآيات المجيدة، إلا أن تتبع مسار الذوق الإيماني المشع منها، نراه يتألق وضّاء مبهراً في بعض التعبيرات والكلمات، أولها أو أظهرها كلمة «المعروف» ومشتقاتها. لقد تكررت تباعاً عشر مرات، وأحياناً أكثر من مرة في الآية الواحدة.

إن كلمة «المعروف» في اللغة من أصل كلمة «عَرَف» يعرف معرِفة. فالذي يعرف دينه ومقاصده وأنه «رحمة للعالمين» يسلك في كل أقواله وأفعاله ـ حتى في مواقف وأوقات البأساء والضراء والضيق والكرب ـ بما يتوافق مع رحمة الإسلام وسماحته ونُبله.

والكلمة أيضاً (المعروف) قريبة في المعجم من كلمة «العَرْف» أي الرائحة الطيبة، والريح الطيبة، وفي سورة محمد: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ ﴾[2]. قال بعض المفسرين: أي طيَّب

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٣.
(٢) سورة محمد، الآيات: ٤ ـ ٦.

لهم رائحة الجنة وذكّاها لهم. و«المعروف» أيضاً هو: ما يُرْتَضَى ويُقْبل ضد ما يُسْتَقْبَح ويُنْكر.

فكأن الآيات القرآنية في هذا المقام تضغط ضغطاً قوياً متواصلاً لكي تكبح جِماح النفس الأمَّارة بالسوء حتى تتبصَّر وتترشد وتُنْصِف، فلا تَبْخس أو تجور وتُجْحِف، وبذلك أيضاً تسد مداخل الشيطان الذي يزين السوء والفحشاء. وكأنها أيضاً تثبِّت إيمان المؤمن الصادق الصالح، وتبشره مرة بعد مرة بأن التزامه بالمعروف، وتجمُّله بالإحسان، وإخضاع هواه ـ فيما يحب ويكره ـ لأمر الله وشريعته، يُفْضي في النهاية إلى مرضاة الله «العزيز، الحكيم، العليم، البصير، الخبير، الغفور، الحليم» كما جاء في الآيات البينات. وفيها أيضاً حث للمرأة المؤمنة على اتباع «المعروف» وتقوى الله فيما تقول أو تفعل. ثم تُختتم الآيات بهذا النداء الإنساني الرفيع المستوى ديناً وخُلقاً: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. إنه تجميل وتزيين ـ أو اللمسة الجمالية الأخيرة المضافة ـ للتشريع أو القانون، مع التحذير (أو هو البشارة) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

والآن: هل يحق لمسلم حسن الإيمان (وإن صلى وصام وزكّى وحج واعتمر) بعد سماع هذه الآيات أن يهين زوجته، أو مطلقته، وأن يبخسها حقها، أو ينازعها فيما فرضه لها الإسلام مادياً ومعنوياً؟ هل من أخلاق الإسلام (ولا نقول من صفات الإيمان) أن يزهو «بجرجرتها» في المحاكم والتحايل ـ أو الاحتيال ـ لاغتصاب مالها ومتاعها والامتناع ـ أو التراخي ـ في الإنفاق على أبنائه الذين في حضانتها؟ وهل يحق لها ـ إن كانت مسلمة مؤمنة ـ أن تسيء إليه، أو تَأْتمر به وتفتري عليه، أو تهمل في واجباتها نحو أبنائها منه إذا ما انتهت العلاقة بينهما بالشِّقاق ثم الطلاق؟ ما أكثر ما يشقى أزواج بزوجات، أو زوجات بأزواج، فيسيئون إلى أنفسهم وأبنائهم، لتغافلهم عن الذوق الإيماني العفيف الرحيم الذي يرتفع فوق سداد التشريع والقانون، والذي يتمثل وضَّاء متألقاً في «المعروف»، و«الإحسان»، و«التراضي»، و«التزكية»، و«الطُّهر»، و«عدم نسيان الفضل» السابق أيام الصفاء والوفاق. ولْتُراجع الآيات!

يقول الرواة: كان بين الإمام علي رضي الله عنه وزوجته فاطمة الزهراء رضي الله عنها خلاف في مناقشة، فغضبت الزهراء، وانْتَحت جانباً. فلم يجد الإمام عليّ حرجاً في استرضائها بقوله: هَبيني أخطأتُ يا فاطمة، فمِثْلك أهل للصفح والمغفرة!

وجاءت جميلة بنت سلول تشكو إلى رسول الله ﷺ أنها تكره زوجها ثابت بن قيس ولا تريد معاشرته. لكنها بدأت بشهادة في حقه لافتة للنظر تدل على إيمان صادق وذوق كريم قالت: يا رسول الله ما أعتب عليه في خُلُق ولا دين، ولكن أكره الكفر بعد الإسلام. وفي رواية أنها قالت أيضاً: لا أطيقه بُغضاً. فنراها قدَّمت شهادة لا تطعن في خُلقه ولا في دينه، ثم بررت شكواها بأنها لا تطيق معاشرته (ذكر بعض الشرَّاح أنها كانت شابة حسناء وزوجها مُسن غير وسيم، وأنها قصدت بالكفر بعد الإسلام خشيتها من عصيان أمر الله في طاعته والوفاء بحقوقه، أو مخافة الانزلاق إلى ارتكاب فاحشة). وكان زوجها ثابت أعطاها صداقها حديقة. فقال لها النبي ﷺ: «**أتَرُدِّين عليه حديقته التي أعطاكِ؟**» قالت: نعم وزيادة. فقال النبي: «**أما الزيادة فلا، ولكن حديقته**». قالت: نعم. فقال لثابت: «**خُذ الذي لها عليك وخَلِّ سبيلها**» فأخذ ثابت الحديقة وخَلَّى سبيلها (أي فَسَخ عقد الزواج)، وقيل: طلَّقها تطليقة، فكان هذا أول خُلْع في الإسلام[1].

وهذا يذكِّرنا ـ أو يبصِّرنا ـ مرة أخرى بقانون العلاقة الزوجية الإلهي المحكَم: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾. لا نحسب أن تشريعاً في الدنيا كلها ـ سابقاً ولاحقاً ـ صاغ حقوق المرأة كلها ـ نعم كلها ـ عند الرجل بمثل هذه الدقة، والإيجاز، والشمول، والتوازن العجيب المبهر، الذي يتيح لكل امرأة مسلمة أن تَسْتمسك به ـ أو كما يقال: بحذافيره ـ وأن تفاخر به إزاء كل التشريعات، وكل

(١) يقال: خالَعَت المرأة زوجها إذا أرادت طلاقها ببدل أي عطاء منها له، أو كما قال القرآن في الآيات السابقة: ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ نفسها. وهذه الواقعة أوردها البخاري، وابن ماجه، والنسائي، والترمذي، والدارقطني، والبيهقي في صيغ متقاربة، ولها في الفقه باب وشروح وأحكام.

المضلِّلين والمفترين على الإسلام العظيم، كما لها أن تزهو به على نساء العالمين.

إن كل القوانين الدستورية الوضعية التي تهتم بهذا الجانب لا تكاد تخرج صياغتها عن: «الرجل والمرأة متساويان في الحقوق وفقاً للقانون». ويقدِّم الرجل في العبارة على المرأة، لأن المشرِّعين رجال أو غالبيتهم، وكأنهم يعترفون ضمناً بأن «للرجال عليهن درجة!» لكن الصياغة القرآنية هنا لا تَذْكر الرجال في المقابلة بالنساء، وإنما تذكِّرهم وتُلْزمهم ـ بالأمر الإلهي ـ فتجعل الصياغة خالصة للنساء، وكأنها منحة إلهية ـ وهي حقاً نعمة كبرى تستوجب الشكر ـ في أربع كلمات تتسع في المعنى والمغزى، في الزمان والمكان، لتلائم كل عصر وبيئة وجيل.

كيف؟ ولماذا؟

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾.

لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات. بمعنى: إذا أراد الزوج منها الطاعة والاستقامة، فعليه أن يكون مطيعاً لله فيما أوجبه عليه نحوها وأن يكون مستقيماً. إذا أرادها أمينة صادقة بارَّة خيِّرة، فليقدم المثل في الأمانة والصدق والبر وفعل الخيرات. إذا ألزمها بالتجمل والتعفف والاقتصاد في الإنفاق وحُسْن الخُلق، ألزم نفسه أولاً بهذا كله وزاد عليه، حتى يكتسب بحق تلك «الدرجة» الزائدة في التوجيه والرعاية والقيادة، وهي التي أشارت إليها الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾. وهكذا تختلف المطالب والأذواق من أسرة إلى أخرى، ومن بيئة إلى غيرها، ومن عصر إلى ما بعده، خارج نطاق الحقوق والواجبات التي تحددها القوانين، مع الالتزام الكامل بالقاعدة المقررة المعروفة: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

وإنه لمن الذوق السقيم الممقوت أن يطلب زوج من زوجته الأمانة والعفاف والصدق، وهو ذاته لص خائن طائش كذوب. وفي مطلع سورة الصف من[1] القرآن الحكيم توبيخ وتحذير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾. إنه عار وصَغار، كما قيل:

---

(١) سورة الصف، الآية: ٢ - ٣.

لا تَنْهَ عن خُلُق وتأتي مثلَه   عارٌ عليك إذا فعلتَ، عظيمُ

ومع هذه الدقة في الصياغة، والمرونة الرقيقة الرحيمة في التطبيق، تُضيف الصياغة القرآنية كلمة تعلو بالتشريع فوق كل قانون آخر أو تشريع: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ ﴾. بهذا ـ بكلمة «المعروف» ـ تكتمل دائرة العلاقة الأسرية في إنسانيتها العليا، تشع منها ومضات من الجمال، والحُسن، والرقة، والكرم، والكرامة، والذوق الإيماني البديع، فلا تجبُّر ولا تكبُّر، لا استعلاء ولا استهزاء، لا إهانة للمرأة ـ كما يزعمون ـ ولا تسيُّد للرجل، وإنما هي طاعة لله أولاً (والطاعة مجلبة للرضا والسكينة والفلاح)، واكتساب الحقوق بمعروف، وأداء الواجب بمعروف وإحسان.

أليست هذه من معالم «الحضارة»؟ ألا تُحسب في عصر الزهو الزائف بالمدنية الحديثة (وما فيه من تشريعات جافة قاصرة) خطوة كبيرة على طريق «التقدم» و«المساواة» و«الحرية». بل هي خطوة تقدمت بالفعل عصوراً وعهوداً زعموا أنها جلبت المدنية والارتقاء، والواقع العملي يشهد أنها تقدمت حقاً في العلوم والاكتشافات والاختراعات والإنتاج، ولكنها خَوت من ركائز إنسانية وروابط اجتماعية وأسرية كثيرة، فكان ما نرى وما نسمع من عواقب وخيمة تزداد في بلاد «التقدم» الصناعي والعمراني مجلَبة لسوءات ومآسٍ ومشكلات؛ ويا ليتنا في بلاد «الإسلام» نلتزم ـ أفراداً وأُسراً أولاً ـ بتعاليم ديننا السمح الحكيم الرحيم، لنَسعد به ونَنْعم، ونقدِّم صورة صحيحة عنه، لعلها تفتح القلوب وتهيىء العقول لمعرفة أنه بحق: ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

في الطريق
في المجلس
في القيادة

الطرق، والشوارع، والحارات، والأزقة... معابرُ القرية أو المدينة، وشرايينها وشعيراتها الدموية الدافقة بالحركة والحيوية والنشاط، ومواد الإعاشة والإغاثة والإحياء.

وللطرق ـ وروافدها ـ نُظم، ومسارات، وآداب. وللمسؤولين عن تخطيطها وتجميلها وصيانتها ابتكارات وتقديرات ونظرات؛ كما أن للسالكين والعابرين بها أساليب ومظاهر تُفصح عن مدى تحضُّرهم أو تمدُّنهم، من خلال احترامهم أو إهانتهم للشوارع والطرق، وآداب السير والتنقل والعبور، مشاة أو رُكباناً، وهذا في الحق احترام لأنفسهم وسلامتهم أولاً، وللمجتمع الذي ينتسبون إليه أو يعيشون فيه.

يمشي المسلم في طرقات المدينة ـ أو القرية ـ مثل غيره من الناس. فإن هو التزم بآداب السير والعبور ـ راجلاً أو راكباً ـ سَلِم غالباً وأمِن، وكان إنساناً متحضراً مهذَّباً كسائر المتحضرين المهذَّبين. لكن هذا في منطق «الإيمان» لا يكفي! وقد نعجب أن القرآن الحكيم لم يغفل هذه الجزئية، فيشير إليها في عدة آيات مفصَّلات تضيف إلى الآداب والسلوك بُعداً وضَّاء مباركاً، وقيمة إنسانية اجتماعية فوق ما تعارف عليه «التقدميون» و«المستقبليون»، وكلها تندرج تحت مظلة «الذوق الإيماني» الحي النضير. وهذه أمثلة:

أولها: المشي في وقار واستقامة وتوسُّط، فلا يُسْرع ويهرول ـ بغير ضرورة ـ فيبدو كالغِر الأرعن، ولا يتباطأ ويتثاقل كالمزهو بنفسه وقَدْره. ففي سورة الإسراء:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[1]. وفي سورة لقمان[2]: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

ولا تكتفي الآيات القرآنية بالتحذير والنهي، وإنما تضع «النموذج» الأسمى لسلوك المؤمنين الصادقين الصالحين وتسميهم «عباد الرحمن» فتنسب عبوديتهم إلى الله الرحمن، وما أجلَّه وأعظمه انتساب فياض بالرحمات والبركات، على طول الطريق، وفي مسارات الحياة، وبعد الممات:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي يمشون في تواضع وسكينة ووقار. ثم تضيف: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾[3].

ليس هذا وحسب، بل أيضاً: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[4].

وهنا نتوقف قليلاً مع الأمر الإلهي: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ الذي يأتي مباشرة بعد القصد ـ أي التوسط والاعتدال ـ في المشي خلال طرقات وشوارع المدن.

إن المبدأ العام الذي يطبع المؤمن بطابع الأدب القرآني ويُكسبه ذوقاً إيمانياً رفيع المستوى قد ورد في سورة الإسراء[5]: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾. فهل رفْع الصوت يُسأل عنه المرء ويحاسَب عليه؟ نعم، إن كان بلا حاجة ولا ضرورة، كاستغاثة مثلاً أو تحذير من خطر داهم، أو في خطبة جماهيرية ـ كخطبة الجمعة ـ بالقدْر الذي يُسمع الحاضرين ولا يثير سخط مَن سواهم. لأن الصوت بالكلام نعمة (وقد لا يدرك قيمتها إلا الذين يصابون باحتباس الصوت فلا يقدرون على الكلام)، والإسراف في استخدام النعمة أمر مرذول مرفوض. ومن صفات النبي ﷺ أنه: «كان خافت الصوت طويل السكوت لا يتكلم

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٨.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٤) سورة لقمان، الآية: ١٩.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

في غير حاجة». وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه «يُدْني أذنه من فم النبي ﷺ ليسمع منه».

ولقد عُلِّمنا أن صلاة النهار ـ الظهر والعصر ـ بلا صوت مسموع (في تلاوة الفاتحة وشيء من القرآن في الركعتين الأولتين) على العكس من صلاة الليل ـ المغرب والعشاء والصبح ـ جهرية. لماذا؟ لأن إيمان المؤمن مدعاة «للتعادلية» وحفظ التوازن في هذه الحياة: فإذا كان النهار يتسم بالصخب والضجيج والضوضاء عادة، يكون سلوك المؤمن فيه متسماً بالسكون والوداعة والهدوء؛ وإذا كان الليل «سَكَناً» كما قال الخالق جل وعلا، فلا جُناح على المؤمن أن يرفع صوته قليلاً بالتلاوة؛ والله أعلم[1] فالذي يصخب بالليل (بالكلام أو الصراخ أو بالأجهزة الصوتية: كالمذياع ومكبرات الصوت والتليفزيون والستيريو، أو بأبواق السيارات...) ينقصه الذوق الإيماني؛ كما أنه يسيء، ويضايق، وقد يؤذي جاره ومَن حوله وهذه معصية إن لم تكن عصياناً لأمر الله، وخروجاً عن أدب القرآن ومخالفة لسنَّة الرسول ﷺ: في سلوكه، وفي وصاياه بحقوق الجار وحقوق الناس واحترام مشاعرهم وحرياتهم الوقورة المنضبطة، وهذا معروف مشهور متداول في الكتب والخُطب والمواعظ، وتكفي الإشارة هنا إلى تشبيه القرآن الكريم صوتَ الإنسان الصاخب الصارخ المضجِر بصوت الحمير المتناهي في الرذالة، وأشدها نُكراً.

ولقد ثبت علمياً أن جهاز السمع في جسم الإنسان (ولسوف يُسأَل عنه يوم القيامة وعن حفظه وصيانته) يتأثر بالأصوات العالية والصخب والضجيج، فيتْلَف، ويؤثر على أجهزة الجسم الأخرى، وخاصة المخ والأعصاب. وقد يكون مناسباً ومفيداً أن نطالع بعض ما أسفرت عنه دراسة بحثية عام ١٩٩٦ لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وصدر عنها تقرير عام ١٩٩٨ بشأن الضوضاء (أو الصخب والضجيج) وأثرها على البيئة والمجتمع والعمل والعمال والإنتاج والاقتصاد. ولإدراك مدى الخطر الناجم عنها، لا بد من معرفة أن شدة الطاقة الصوتية تُقاس

---

(١) وفي سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ (الآية: ١١٠).
وفي سورة غافر: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (الآية: ٦١).

بالديسيبل(Decibel) . فمثلاً: الهمس مقداره (٢٠) ديسيبل، والكلام في المناقشة العادية ٦٠، وصوت السيارة الصغيرة ٦٥ ـ ٨٠، وشاحنة البضائع ٨٠ ـ ٩٥، وأنغام الديسكو (الملاهي الراقصة) ٨٥ ـ ١٠٥، وقطار البضائع ١٠٠، والقطار السريع ١٠٥ ـ ١١٥، والطائرة النفاثة ١١٥ ـ ١٢٠. وثبت علمياً أن تعريض الأذن فترة (جهاز السمع البشري) إلى ضوضاء شدتها أكبر من ٩٠ د.ب يؤدي إلى الصمم المؤقت؛ وأكبر من ١٠٠ د.ب يسبب تلفاً دائماً. مع ملاحظة أن زيادة عشر درجات في القياس يعني مضاعفة شدة الصوت، أي إن صوتاً مقداره (٧٥) د.ب هو ضعف شدة صوت مقداره (٦٥) د.ب. فماذا يقول تقرير المنظمة؟

إن اليونان هي أكثر دول أوروبا ضجيجاً وصخباً، وإن ٦٠٪ من سكان العاصمة أثينا (سكانها خمسة ملايين) يتعرضون لضوضاء مقدارها ٧٥ د.ب، أي ضعف المستوى المناسب (٦٥ د.ب)، ولذا فإن هذا المستوى من الأصوات العالية والضوضاء يؤدي إلى أعراض فردية واجتماعية مثل الميول العدوانية، وارتفاع ضغط الدم، ومع مرور الوقت يعجِّل بالصمم أو الجنون.

وجاء في تقرير آخر لهيئة «البيئة الأوروبية» صدر عام ١٩٩٥، أن ٦٥٪ من سكان أوروبا (٤٥٠ مليون نسمة) يتعرضون بانتظام لضوضاء تتجاوز شدتها ٥٥ د.ب، وهذا يكفي لانتشار الإصابة بالضجر والضِّيق، والسلوك العدواني، واضطراب النوم. ويضيف تقرير الدراسة أن ١١٣ مليون أوروبي يتعرضون دائماً لمستوى من الضوضاء يتجاوز ٦٥ د.ب فيسبب التوتر الشديد والضغط العصبي المفرط؛ وأن عشرة ملايين أوروبي يتعرضون لضوضاء تزيد عن ٧٥ د.ب، فتؤدي إلى ارتفاع نسبة التوتر، والإجهاد، وإصابات القلب، وفقدان تدريجي للسمع. وفي دراسة بحثية في بريطانيا (عام ١٩٩١) ظهر أن «أصوات الموسيقى العالية الصاخبة تُفْضي ـ في بعض الأحيان ـ إلى الانتحار أو ارتكاب جرائم قتل». وفي دراسة بحثية في هولندا (في منطقة مطار العاصمة الدولي الصاخب ليلاً ونهاراً بلا انقطاع) وردَت هذه العبارة: «يبدو أن الناس (السكان) تنازلوا عن صحتهم فدفعوها ثمناً لسلامة الاقتصاد».

ألا يتقدم المؤمن إذن ليصحح ـ بذوقه الإيماني ـ ما أحدثته «المدنية» المعاصرة من خلل وضرر وفساد، ويُعيد التوازن الطبيعي، ويحقق التعادل المناسب لسلامة الإنسان والمجتمع والبيئة؟ وإنها لحقاً معجزة قرآنية، تظهر ملامحها في عصرنا المثقل بالبلايا والضحايا والكروب ـ وبعد أكثر من أربعة عشر قرناً من نزول القرآن على خاتم الأنبياء ﷺ؛ وفي بيئة بدوية شبه منعزلة، هادئة ساكنة، بالقياس إلى البيئات المدنية «المتمدنة الحديثة» ـ فيأمر بخفض الصوت في أكثر من آية، ويسفّه الصخّابين والمضجِرين ـ حتى في العبادة ـ ويشبههم بكائن قبيح الصوت منفِّر، وحاشى للمؤمن الحق أن يكون كذلك، أو قريباً من ذلك، أياً كانت الحُجة أو المبرر والادعاء.

وأمر آخر!

نهانا القرآن الحكيم عن النداء الصاخب العالي في الشوارع والطرقات ومن وراء النوافذ والأبواب. ففي سورة الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾. هكذا وصف القرآن الكريم أولئك المنادين غيرهم ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ أي من خارج البيت، أو المسكن، أي من الشارع: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾. والكثرة هنا تعني السمة الغالبة وهي السفاهة، والخلل العقلي، والخروج عن قواعد الأدب والذوق والوقار. واستثناء البعض (مع الكثرة) ربما لأنهم فعلوا ذلك عن غفلة، أو جهالة، أو قبل نزول الوحي بتسفيه ذلك؛ وربما ـ والله أعلم ـ لأن القليلين من الذين فعلوا ذلك وقتها كان يغلب عليهم التعقل والانضباط، وفعلوه سهواً أو تعجُّلاً، ثم عادوا وندموا أو خجلوا من أنفسهم، فتابوا واستغفروا، فجاء ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾. واليوم، أليس من الجلافة والحمْق وفساد الذوق أن تُستخدم أبواق السيارات ـ نهاراً أو في سكون الليل ـ كأداة نداء صاخب مذموم ممجوج؟ وهل يفعل ذلك مؤمن ـ أو مؤمنة ـ يقرأ، أو قرئت عليه، سورة الحُجرات؟

يقول الرواة: إن الذين نزلت فيهم هاتان الآيتان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ

﴿الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ كانوا وفداً من بني تميم، نحو سبعين رجلاً فيه الأقرع بن حابس وعُيَينة بن حصن، نادوا النبي ﷺ من خارج حجراته (وكانت في ركن من المسجد) فتأذى رسول الله ﷺ، وخرج إليهم فقال: «فيمَ جئتم؟» قالوا: جئنا بخطيبنا وشاعرنا نفاخرك ونشاعرك. فقال النبي: «**ما بالشِّعر بُعثت، ولا بالفَخار أُمرت، ولكن هاتوا**» (أي: لم يردهم ولم يصدّهم أو يوبخهم رغم تأذيه منهم وإعراضه عن الشعر والفخار). فقام خطيبهم فخطب، وقام شاعرهم فأنشد، فأمر النبي ﷺ ثابت بن قيس فقام وخطب، وأمر حسان بن ثابت فقام وأنشد. فلما دهشوا من سماع المعاني الوضاءة الجديدة؛ والحكمة الراشدة التي اكتسبها كل من ثابت وحسان بعد دخولهما في الإسلام، وكذلك من صبر الرسول عليهم، قال الأقرع: والله ما أدري ما هذا؟ تكلم خطيبنا وكان خطيبُهم أحسن قولاً، وأنشد شاعرنا وكان شاعرهم أشعر. ثم دنا من رسول الله ﷺ وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله. فلما سئل النبي عن هذا الوفد قال: «**إنهم جُفاة بني تميم**»!

ويرتبط بآداب الطريق ذوق إيماني آخر، يتضح من حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه البخاري وأبو داود عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه: «**إياكم والجلوس في الطرقات**» قالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا (فيها) بُد. قال: «**فإذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقه**». فقالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «**غَض البصر، وكَف الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر**». وفي رواية مسلم: «**وحُسن الكلام**».

الأصل إذن: المَنْع، أو النهي عن الجلوس في الشوارع والطرق. «إياكم والجلوس...». فلما جاء الاستثناء، حمل معه «أوامر مشددة» ـ كما نقول اليوم ـ باتباع آداب عامة يجمعها ذوق إيماني رفيع منيع.

والزيادة التي ألحقها الإمام مسلم بالحديث: «**حُسن الكلام**» تعني أنه في مجالس المؤمنين الصادقين لا لَغْو ولا لَهْو؛ لا غيبة ولا نميمة؛ لا دخول في حديث أو جدال ينكره الشرع والخُلق الكريم والعُرف العفيف القويم. وفي وصف

القرآن الحكيم للمؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾[1]. وفي سورة القصص (الآية ٥٥) تفصيل مبدع في الرقي والسمو: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

واللغْو: كل كلام تافه قبيح مَعيب، وكل هُراء لا قيمة له ولا خير فيه. فهو إذن مضيعة للوقت، ومَشْغَلة عن الذِّكْر، ومَجْلبة للشر والإثم. والمؤمن الحق: جاد مُجيد حذِر حييٌّ، فيُعْرِض. ولكن في غير استعلاء أو تأفف أو سُخْف وسُخط، وإنما يأتي إعراضه ـ بالكف عن المشاركة في اللغو أو بالانسحاب من المجلس ـ في رفق وسماحة وذوق، مستخدماً منطق الواثق بربه، وبنفسه، وبمنهجه: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾. مَن يعيب هذا أو ينازعه أو يغضب منه؟ ثم إضافة أخرى أجمل وأحسن: «سلام عليكم». ولعل بعضنا يعجب: هل يُقال لمن نرفض حديثه ونُعرض عن محادثته لانحرافه عن الصواب وجنوحه عن الفضيلة، هل يقال له: سلام عليكم؟!. نعم، لأن هذا هو منطق الإسلام، وذوق الإيمان. كيف؟.

لأن المؤمن ـ وبالتالي المسلم ـ ليس حاكماً على الناس، ولا متسيداً على الناس، وإلا كان من هو أفضل منه ومن كل المؤمنين والمسلمين، أحق بهذا وأقدر، وهو النبي المصطفى محمد ﷺ. فالقرآن الكريم يقرر صراحة، وقرأه الرسول الأعظم على الناس جميعاً ـ مسلمين وغير مسلمين ـ مما يشهد بأمانته المطلقة، وبأن القرآن كتاب أنزله الله بعلمه (إذ لا يَقْبل المنطق البشري المستساغ عادة أن يقول «إنسان» عن نفسه مثل ما تقرره الآيات، فما بالنا بالنبي والقائد القدوة). يقول القرآن الكريم:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[2]. وفي سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[3]. وفي سورة البقرة:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[1]. ثم تَحسم الآية الرابعة والعشرون وما بعدها من سورة سبأ هذا الأمر في ذروة من الأدب والذوق الإيماني المدهش الفريد، وقد جاءت في سياق مخاطبة الكفار والمشركين والمعاندين الضالين المستكبرين، فتختم الحوار المنطقي بهذا الأسلوب العجيب حقاً، وفيه درس ـ بل دروس ـ لكل مسلم ومسلمة، لكل مؤمن ومؤمنة، لكل الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، لكل «المجاهدين» بالكلمة والقلم، والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. تقول الآيات البيِّنات:

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾[2].

هنا قمة التطبيق العملي والمثالي لقوله تعالى الذي بدأنا به هذا الكتاب: ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾، ثم في موقف خصومة وجدال حول أصل العقيدة وجوهر الإيمان والتوحيد. ومع مَن؟ مع أئمة الكفر والصَّلَف والتضليل. إن الحق في موضوع الخلاف معهم واضح بيِّن ـ منذ بداية الحوار في السورة ـ لا يحتمل مساومة ولا مفاضلة: إما إيمان وتوحيد، وإما كُفر وتَخسير. والحق كل الحق مع النبي البشير النذير. ومع ذلك، لم يقل لهم: أنتم ضالون مارقون ومصيركم إلى جهنم وبئس المصير؛ أو: لسوف يخسف الله بكم الأرض أو يُصيبكم بعذاب أليم؛ وإنما لخَّص الموقف كله في صياغة بسيطة رائعة كأنها حقيقة بديهية تحسم المناقشة، وعليهم بعد ذلك أن يتدبروا ويختاروا: أمامنا وأمامكم الآن هدى وضلال، حق وباطل، ولما كان كل منا مستمسك بما معه ثابت على موقفه، فأحدنا ضال والآخر مهتدٍ. ثم ليتحمَّل كل منا مسؤولية اختياره أمام الخلق جميعاً ـ يوم القيامة ـ فلن يسألكم الله تعالى ﴿ عَمَّآ أَجْرَمْنَا ﴾، ولن نُسأل عن أعمالكم، بعد أن بلَّغناكم وبَيَّنا لكم. وعجب كل العجب أن يقول داعية الحق ﷺ ﴿ لَّا تُسْـَٔلُونَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٢) سورة سبأ، الآيات: ٢٤ - ٢٥ - ٢٦.

عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾ ولا يقول لهم: ولا نُسأل عما تُجرِمون؛ فقد كان المتوقَّع أن يقول: لا تُسألون عما عَمِلْنا ولا نُسأل عما تُجرمون. لماذا؟..

لأن القرآن كلام الله تعالى، أنزله على خاتم الأنبياء هدى للناس ورحمة للعالمين. وإذ هو الحق والصدق، فإن حامله والداعية إلى الله به على بصيرة، يكون واثقاً كل الثقة بربه، وبقرآنه، وبرسالته التي يدعو - في رفق - إليها. وعليه أن يعرف حدوده فلا يتجاوزها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾[1]. فهو ليس قاضياً يحكم على الناس، ولا أُمر بتمييزهم وتصنيفهم وفَرْزهم: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾، وليس من حقه أن يتجسس عليهم أو يتقصَّص ما خفي عليه من أحوالهم: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾[2]. وفي حديث معاوية رضي الله عنه الذي رواه أبو داود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إنِ اتَّبعتَ عورات الناس أفسدْتَهم أو كِدْتَ أن تفسدهم**»[3]. وفي حديث مسلم عن أبي هريرة: قيل للنبي ﷺ: ادْعُ الله على المشركين والْعَنْهم. فقال: «**إني إنما بُعِثْتُ رحمة ولم أُبعث لعَّاناً**»[4].

وتعلِّمنا الآيات فوق ذلك، درساً بليغاً في أدب المناقشة والجدل بالحسنى، باستخدام الحُجة الواضحة، والمنطق الرشيد، والذوق الرفيع في المخاطبة، من غير إثارة أو غضب ومضايقة.. أو ازدراء. وهل كان النبي المصطفى ﷺ يفعل خلاف ذلك في مجالسه الخاصة والعامة؟!

ويعود بنا الحديث عن المجالس والذوق الإيماني الذي يحوطها ويظللها،

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٣) والناس في الحديث تشمل المسلمين وغير المسلمين.

(٤) ليس فقط رحمة للبشر: ففي حديث مسلم وأبي داود عن عمران بن حُصين: بينما النبي ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت، فلعنتْها، فسمع النبي ذلك فقال: «**خذوا ما عليها (أي الناقة) ودَعوها فإنها ملعونة**». قال عمران: فكأني أراها الآن - أي الناقة - تمشي في الناس فلا يَعرض لها أحد.

فيتناولها القرآن الكريم في أدق التفاصيل إذ يقرر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾(١). وانشزوا أي قوموا وانصرِفوا.

هكذا يجنِّب القرآن المؤمن ـ والمؤمنة ـ بلادة الحس، وثِقل الظل، وأولى به أن ينصرف من المجلس قبل أن تضيق به صدور الحاضرين. ومن السُّنة أن يسلِّم عند قدومه، ويجلس حيث ينتهي به المجلس، فلا يتخطى الرقاب أو مقاعد الجالسين ليتصدر المكان، كأنه يتعالى عليهم، أو يعطي نفسه قَدْراً من التزيد والرفعة، وهذا منكر مذموم.

يقول الصحابي جابر بن سَمُرة رضي الله عنه: كنا إذا أتينا مجلس النبي ﷺ، جلس أحدنا حيث ينتهي به المجلس(٢). ويعلمهم رسول الله ﷺ حُسن الذوق فيقول: «**لا يُقِيمن أحدكم رجلاً من مجلسه ثم يقعد فيه، ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا يفسح الله لكم**»(٣). وفي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**». وفي حديث آخر للنبي يرويه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة: «**إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فلْيسلِّم، فإن بدا له أن يجلس فلْيجلس، ثم إذا قام فلْيسلِّم، فليست الأولى (أي التحية) بأحق من الثانية**».

وفي المجلس، يُكْرَم الكريم، ويُبَجَّل الجليل، ويوقَّر العالِم. ففي سورة المجادلة: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾(٤). وللنبي ﷺ في هذا الجانب موقفان يكفيان كشاهد ومعلِّم ودليل.

جاء جرير بن عبد اللّه البَجْلي إلى مجلس رسول الله ﷺ بمسجد المدينة، ولم يكن جرير قد أسلم بعد، فلم يجد مكاناً إذ كان المجلس مكتظاً، فجلس على

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه الشيخان (البخاري ومسلم) وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنه.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.

الباب. فرآه رسول الله ﷺ (وكان يعلم أنه سيد في قومه) فلفّ رداءه وألقاه إليه وقال له: «**اجْلِس على هذا**». فدُهِش جرير، وكأنما باغتته صدمة منبِّهة. فأخذ رداء المصطفى، ووضعه على جبهته، وأخذ يقبِّله ويبكي، ثم ردَّه إلى النبي ﷺ، وهو يقول: ما كنتُ لأجلس على ثوبك. أكرمك الله كما أكرمتني! فنظر النبي ﷺ إلى الجالسين يميناً وشمالاً وقال: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»[1]. يقول الرواة: وأسلم جرير في ذلك اليوم!

دخل جرير بن عبد الله البجلي الإسلام من عتبة «الذوق الإيماني» الأنيق الرقيق، وبلمسة وضّاءة مبهرة من يد النبي ﷺ، فظل طوال حياته حريصاً على صحبة الأدب والذوق في كل أقواله وأفعاله، في حياته الخاصة والعامة، وقد كان رضي الله عنه صادق الإيمان، باراً رحيماً، وبطلاً من أبطال فتح القادسية أيام عمر[2].

---

(١) وقد كان عمر بن الخطاب في المجلس، فاستوعب هذا الموقف ـ أو الدرس ـ جيداً. فعندما أصبح أميراً للمؤمنين كتب إلى عامله بالبصرة أبي موسى الأشعري يقول: إنه لم يزل للناس وجوه (وجهاء) يرفعون (إلى الولاة والحكام) حوائج الناس، فأكرموا وجوه الناس، فإنه بحسْب (أي يكفي) المسلم الضعيف أن يُنتصَف في الحكم والقسمة (أي يأخذ حقه كاملاً). وقد بلغني أنك تأذَن للناس جمعاً غفيراً (أي يدخلون عليك جمعاً كبيراً مختلطاً). فإذا جاءك كتابي هذا فلْتأذَن لأهل الشرف، وأهل القرآن، والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم (أي نالوا حظهم من الوقت في الجلوس معك) فأذن للعامة.
هذا المعنى أخذه الشاعر أحمد شوقي وصاغه نظماً حيث يقول:
فكبيرٌ ألاّ يُصانَ كبيرٌ ... وعظيمٌ أن يُنْبَذَ العظماءُ

(٢) كان جرير حسن الوجه وسيماً حتى إن ابن الخطاب رضي الله عنه قال عنه: هو يوسف الأمة. ومن جميل فطنته وذوقه أنه كان يوماً في مجلس عمر، فأحدث رجل عن غير قصد (أي خرجت منه ريح) فقال عمر: عزمْتُ على (أي أقسمت) صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ. فقال جرير: علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزِم. فقال عمر: عليكم كلكم عزمت. ثم قال لجرير: ما زلتَ سيداً في الجاهلية والإسلام!
ومن حسن إيمانه وفطنته وذوقه، أنه ذهب لمقابلة معاوية بالشام رسولاً من قِبل علي رضي الله عنه أيام الفتنة، فلما سمع من معاوية ما أحزنه وأخافه على المسلمين، نصح بالحسنى، ثم اعتزل الناس وسكن بعيداً في قرقيسيا حتى أدركه الموت.

الموقف الثاني لرسول الله ﷺ ـ من بين كثير من المواقف المبجَّلة المعلِّمة ـ ما رواه البيهقي عن الصحابي أبي قتادة رضي الله عنه، قال:

وفَدَ (جاء) وفْد للنجاشي، فقام رسول الله ﷺ يَخْدُمهم (بنفسه). فقال له أصحابه: نحن نكفيكَ (أي نخدمهم)، فقال: «**إنهم كانوا لأصحابنا مُكْرِمين، وإني أحب أن أكافئهم**». أشار بذلك إلى حسن استقبال النجاشي للمهاجرين الأُوَل إلى الحبشة.. و﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾؟.

شيء آخر يجب الالتفات إليه: وهو أن مجلس رسول الله ﷺ كان يجمع بين الجلال والإِلْف، بين الوقار والوُد، وبين التراحم والبِشْر. وجميل حقاً هذا البِشْر، الذي هو خلاف التجهم والعبوس والكَدَر. والبِشْر غير اللهْو، والبشاشة غير التبذل، والتبسط لا يكون ترخُّصاً.

يقول الصحابي عبد اللّه بن الحارث رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ. ويضيف جرير بن عبد اللّه: ما حَجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسم. وفي سنن أبي داود: ما أخذ أحد بيده ﷺ فيرسل يده (أي يسحب النبي يده): حتى يرسلها الآخر. ولم يُرَ مقدماً رُكبتيه بين يدي جليس، حتى إن الغريب كان يأتي فلا يعرفه ويسأل عنه. وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويداعب صبيانهم...

ويصفه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوله: كان أوسع الناس صدراً، وأكرمهم عِشرة، يُكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذِّر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطويَ عن أحد منهم بشْره ولا خُلقه. يتفقد أصحابه، ويُعطي كل جلسائه نصيبه، فلا يحسَب جليسُه أن أحداً أكرم عليه منه. مَن جالسه أو قاربه لحاجة صابَره، حتى يكون (السائل) هو المنصرف عنه. ومن سأله حاجة لم يَرُده

= ورُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: (كان جرير يخدمني وهو أكبر مني). وكيف لا يفعل جرير وهو الذي روى حديث رسول الله ﷺ والتزم به: «**مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله**»؟! رضي الله عنه.

إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بَسْطه (لينه وبشْره) وخُلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء. وكان لا يَجزي السيئة بالسيئة، ولا يواجه أحداً بما كرِه.

فماذا يقال للصخَّابين، والعابسين، والغلاظ المنفِّرين والمعسِّرين على أنفسهم وعلى الناس، في عصبية وفظاظة ونَزق، باسم الدين، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!

وأكثر من ذلك ما روتْه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: ما كان أحد أحسنَ خُلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه (ناداه) أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال: «لبَّيك»! (أي: ها أنا ذا أُسرع بتلبية ندائك؛ وهو من هو صلوات الله وسلامه عليه!).

فإذا تجاوز أحدهم وتكلم بما لا يليق، أو أفرط في تبجيله والثناء عليه، ردّه في رفق ونُصح، ونبَّه الأمة كلها معه. يذكر أنس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البَرِية (أي الخَلْق)، فقاطعه النبي قائلاً: **«ذاك إبراهيم خليل الله»**[1].

ودخل عليه رجل، فأصابته من هَيْبته رِعْدة، فقال له النبي: **«هَوِّنْ عليك، فإني لست بملِك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد»**[2].

ولكن... ليس هذا البِشْر، والبشاشة، والتبسط، والتواضع، والذوق العلوي الوضيء، مدعاة إلى البَخْس والوَكْس[3] ومواراة الحياء في مخاطبة الأجلاَّء الكبار أو الانتقاص من احترامهم وهيبتهم. وقد مرَّ بنا قول الله تعالى في سورة المجادلة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[4].

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي. وزاد أبو داود عن أبي سعيد الخدري قوله ﷺ: «لا تُخيروا بين الأنبياء».

(٢) قطع اللحم تُترك في الشمس حتى تتيبس.

(٣) الوكس: النقص.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.

وفي سورة النور تنبيه هو أقرب إلى التحذير والتوبيخ للذين يَبخسون الناس أشياءهم وأقدارهم ـ خاصة العلماء الصالحين المصلحين منهم ـ وللذين لا يُنزلون الناس منازلهم؛ وأوْلى الناس جميعاً بالإجلال والإكبار وعلو المنزلة، رسول الله ﷺ وإخوانه الرسل والأنبياء. يقول تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾(١).

كان بعض الجفاة الغلاظ ينادونه: يا محمد، يا أبا القاسم، كما ينادي بعضهم بعضاً بالاسم مجرداً أو بالكُنية. وكان ﷺ ـ لحيائه وخلقه العظيم ـ يقْبل منهم ولا يعيب نداءهم. فتولى القرآن الكريم تنبيههم وردهم إلى الصواب وحُسن الذوق في مخاطبته، تماماً مثلما حذَّرهم في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ﴾(٢). قد يُظن أن هذه جزئية بسيطة يمكن التغاضي عنها، وربما زعم البعض أن لا حَرج فالإسلام ساوى بين الناس، وجعل العزة لله ولرسوله ولجميع المؤمنين. نعم، المسلمون كلهم سواء في الإنصاف والعدل وتطبيق الأحكام («لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها»)، ولكن الناس في أي مجتمع (ولو دققنا النظر لوجدنا ذلك أيضاً في كل تجمع للمخلوقات) يختلفون حصافة وخبرة وذكاء وعلماً وقدرة وكفاءة ونضجاً. ولا تستقيم معايشهم إلا بخضوعهم لنظام عام يحفظ الأمن، ويقيم العدل، ويشد أزر الضعيف، وينتصف للمظلوم من الظالم، ويعطي لكل ذي حق حقه، ويوفر حرية العمل المشروع لكل راغب طموح مستطيع. فلا بد إذن من قيادة راشدة صالحة مستنيرة، تعرف ذلك فتلتزمه وتُلْزِم به. والقيادات أنواع ومراتب ودرجات تبعاً للمسؤوليات، وتتدرج في المجتمع من قيادة الأسرة أو البيت، إلى قيادة المدرسة، والعمل، والشرطة، والجيش، والدولة. وحتى في داخل المسجد ـ وهو بيت الله ـ قيادة ونظام. ألا تَفْسد صلاة المرء ـ حتى ولو كان رئيس الدولة ما لم يكن هو الإمام ـ إذا سبق الإمام في أداء الصلاة الجامعة: تكبيراً، أو ركوعاً، أو سجوداً، أو في التسليم؟

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة كثيرة تلك التي تحض على طاعة القيادة، أو ولاة الأمور، وتوقيرهم والنصح لهم بالحكمة واللين. وإذا كان القرآن المعظم ألزم المؤمنين بخفض أصواتهم عند رسول الله ﷺ ومخاطبته بإجلال ووقار، فإنه حذَّر الذين لا يراعون ذلك من ضياع ثوابهم وحسناتهم في كل أعمالهم وعباداتهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1]. ثم بشَّر الذين يوقرون رسول الله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾[2].

ومن هنا، يُلزِم المؤمن نفسه بما أمر الله به، ولا يتخلى عنه الذوق الإيماني في مخاطبة الصالحين الأبرار من العلماء والقيادات والآباء وأُولي الأمر. وكان الصحابة رضوان الله عليهم أسبق في هذا الجانب وأوفق: ألم يخاطبوا الصديق أبا بكر عقب توليه أمورهم بقولهم: يا خليفة رسول الله؟ ألم ينادوا خليفته ابن الخطاب بقولهم: يا أمير المؤمنين؟[3].

وماذا فعل الخليفة أبو بكر مقابل ذلك؟ لما صعد المنبر في مسجد النبي بالمدينة ليخطب، لم يجلس فوق المكان الذي كان يجلس عليه النبي ﷺ من المنبر

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٣.

(٣) لما مات أبو بكر الصديق رضي الله عنه، استثقل الصحابة مناداة عمر بقولهم: يا خليفة خليفة رسول الله. وروى الطبراني والحاكم والعسكري أن الخليفة عمر كتب إلى عامل (أمير) العراق أن يبعث إليه برجُلين شجاعين يسألهما عن العرق وأهله (ليطمئن على أحوال الرعية وواليه عليها)، فبعث إليه لبيد بن ربيعة، وعدي بن حاتم. فقدما المدينة، ودخلا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص، فقالا: استأذن لنا على أمير المؤمنين. فدهش عمرو وقال: أنتما والله أصبتُما اسمه. فدخل عليه عمرو فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فتعجب عمر وقال: ما بدا لك في هذا الاسم؟! لتَخْرُجَن مما قُلت (أي: اتركْ هذا القول)، فأخبره عمرو بما قاله الرجلان ثم قال: أنت الأمير ونحن المؤمنون. فصارت الرسائل تُكتب بذلك. وهناك روايات مختلفة حول أول من ناداه بهذا الاسم، ولكنها تتفق جميعاً على أن الفاروق عمر هو أول من نودي بأمير المؤمنين.

وقال جملته المشهورة المهذبة: ما كنت لأجلس مكان رسول الله ﷺ. ونزل درجة وجلس. ومثله فعل الخليفة عمر، نزل درجة وقال: ما كنت لأجلس مكان أبي بكر.

وهكذا لم يكن إجلالاً وتوقيراً بمظاهر من الأبهة والترف أو امتيازات التسيُّد والتنعيم، أو انتزاع مكاسب لم يقررها شرع أو تُنْتَقَص من حقوق الآخرين (وقصة الخليفة عمر بن الخطاب مشهورة في محاسبته على ثوب طويل أخذه وظنه البعض ليس من حقه لأنه أطول من ثيابهم، ثم يبين لهم أنه أطاله بثوب ابنه)، إنما كان الحرص على إضفاء لمسات من الأدب الرصين والذوق الرفيع في التحاور والتخاطب والنداء، وهو ما يجب أن يسود مجتمع الإيمان ابتداء من أصغر وحدة فيه: البيت، أو الأسرة؛ ثم الحرص على إقامة شرائع الإسلام وسننه وآدابه بأمانة ودقة.

ولا نذهب بعيداً. هل نذكر تلك الواقعة التي شاهدها الرواة يوم أن اشتد المرض الأخير على رسول الله ﷺ؟

أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: مرِض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال: «**مُروا أبا بكر فلْيصلِّ بالناس**». قالت عائشة: يا رسول الله إنه رجل رقيق القلب، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس (لأنها تعرف أن أباها الصدِّيق لن يمسك نفسه عن البكاء حزناً على رسول الله ﷺ). فقال النبي: «**مُرِي أبا بكر فلْيصلِّ بالناس**» فعادت (تقول كما قالت)، فقال: «**مُرِي أبا بكر فلْيصلِّ بالناس، فإنكن صواحب يوسف**». فأُرسل إلى أبي بكر فأتى وصلى بالناس ورسول الله ﷺ كان حياً. وهذا الحديث متواتر، ورَدَ بلسان أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وعلي بن أبي طالب، وعبد اللَّه بن زَمعة، وأبي سعيد الخُدْري، وحفصة رضي الله عنهم أجمعين.

وفي حديث ابن زَمعة، أن رسول الله ﷺ أمرهم بالصلاة (وهو مريض في حجرته)، وكان أبو بكر غائباً، فتقدم عمر فصلى. فسمعه الرسول ﷺ فقال مُغْضَباً: «**لا، لا، لا، يأبَى الله والمسلمون إلا أبا بكر. يصلي بالناس أبو بكر**».

وفي حديث ابن عمر: كبَّر عمر (أبوه) فسمع رسول الله ﷺ تكبيره، فأطْلَع رأسه (من حجرته) مُغضباً فقال: «**أين ابن أبي قحافة؟**».

قال الإمام السيوطي: في هذا الحديث أوضح دلالة ـ عند العلماء ـ على أن الصدِّيق أفضل الصحابة على الإطلاق، وأحقهم بالخلافة، وأولاهم بالإمامة. ولا يزال الكتَّاب والمتحدثون إلى اليوم يتبعون هذا الرأي الذي سجله السيوطي (توفي عام ٩١١ هـ) في تفضيل أبي بكر، وتقديمه على سائر الصحابة في تولي منصب الخلافة، أي رئاسة الدولة.

ولكن تأمل هذه الواقعة مع التفكير في دلالاتها. إنما يكشف لنا عن مبدأين أساسيين على جانب عظيم من الأثر والخطر، أحدهما موصول بالآخر.

أولهما: أن الأفضل ـ خُلقاً وصدقاً وصلاحاً وتعففاً وفقهاً وورعاً ـ يقدَّم على غيره في المجالس والمجامع، وأيضاً في المناصب والمواقع، إذا كان يملك القدرة والكفاءة والجَلَد. وفضْل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسَبْقه في هذا الجانب شهد بهما جميع الصحابة، وهو أعف الناس في الجاهلية لم يشرب خمراً قط؛ وهو رفيق الهجرة (مع النبي) والصاحب في الغار ومذكور في القرآن: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1]. ويقال أنه المقصود في قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[2]. وفي أبي بكر قال الإمام علي رضي الله عنه: خير هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر[3].

ورُوي عن عمر بن الخطاب قوله: أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ. أما أحاديث النبي ﷺ في شأنه فهي كثيرة، منها قوله[4]: «**أبو بكر الصديق**

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الليل، الآيات: ١٧ ـ ٢١.
(٣) مسند الإمام أحمد.
(٤) أخرجه الطبراني عن سلمة بن الأكوع.

خيرُ الناس، **إلا أن يكون نبياً»**. وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينبغي لقوم فيهم أبو بكر أن يؤمهم غيره**»[1].

وهذا الحديث الشريف الأخير ينقلنا إلى المبدأ الثاني الذي نرى أنه قد يحسم ـ أو على الأقل يضيق دائرة ـ الخلاف في الرأي بين المسلمين منذ زمن بعيد.

أَمَر رسول الله ﷺ أن يصليَ أبو بكر بالناس، أي يكون إمامهم، وشدَّد على ذلك. هنا يجب أن نفرق بين إمامتين: إمامة الأمة أي رئاسة الدولة، وإمامة شؤون الدين أي الرئاسة الروحية. ونحسَب أن رسول الله ﷺ كان يقصد تلك الإمامة (أو الرئاسة) الثانية، لأنها الأجلّ والأخطر في المنظور الإسلامي. لماذا؟

لنتدبر بداية هذه المقدمات الجوهرية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾[2].

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[3].

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾[4].

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾[5].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾[6].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾﴾[7].

---

(١) أخرجه الترمذي.
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان ٤٥ ـ ٤٦.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٢.
(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٨.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٦٧.
(٧) سورة المدثر، الآية: ١.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[1].

﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[2].

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ ﴾[3].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾[4].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾[5].

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[6].

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾[7].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٩. وسورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٣) سورة الشورى، الآية: ١٥.
(٤) سورة البقرة، الآيات: ٢ ـ ٥.
(٥) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ١١.
(٦) سورة الأحزاب، الآية: ٣٥.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

﴿ لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ ﴾(١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾(٢).

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) ﴾(٣).

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾(٤).

تلك آيات بيِّنات، تتضافر، وتتكامل، ويفسر بعضها بعضاً، اختيرت كنماذج تغني عن الإطالة، وفي تأملها وتدبرها ما يرجح ما نحن بصدده: أن الإمامة أو القيادة الدينية، أي الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، هي الأساس والجوهر في صلاح وإصلاح أي مجتمع؛ وهي الأوْلى بالرعاية والاهتمام على أي مستوى، حتى داخل الأسرة وفي أي تجمع وأي مجلس، ويُختار لها الأفضل والأقدر. ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه «مؤهلاً» لخلافة النبي ﷺ في تولي هذا

(١) سورة النساء، الآية: ٩٥.
(٢) سورة الصف، الآيات: ١٠ ـ ١٢.
(٣) سورة الأنعام، الآيات: ١٥١ ـ ١٥٤.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٦.

الأمر، ليكون ختام حياة النبي ﷺ متوافقاً تماماً مع بداية مبعثه ونزول الوحي: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾...

إن في غضب المصطفى ﷺ وهو يوشك أن يودع الدنيا وينتقل إلى الرفيق الأعلى وقوله: **«يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر.. يصلي بالناس أبو بكر»**، إن في ذلك تنبيهاً ـ وربما زجراً ـ للغافلين عن جوهر الرسالة وحقيقة حاملها: وإمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه للمسلمين في الصلاة بأمر الرسول وهو ما زال حياً، تعني الإمامة في شؤون الدين كله، لأن الصلاة كما في الحديث «عماد الدين»، وأول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة بعد شهادة التوحيد.

ولا حرج هنا أن نسأل: هل كان عسيراً على رسول الله ﷺ أن يقرر للمسلمين صراحة ـ وهو راحل عنهم ـ شكلاً محدداً ونظاماً واضحاً لمنهاج حياتهم وإمامتهم الدنيوية فيه؟ ولو كان فعل، فكيف يتوافق إذن مع قوله من قبل: **«أنتم أعلم بشؤون دنياكم»**؟! ومَن ذا الذي يزعم ضرورة أن يضع نظاماً دنيوياً أبدياً يصلح لكل زمان ومكان وبيئة، ولكل عصر وجيل، لا يتغير ولا يتبدل أو يتعدل، وحياة الناس في تطور دائم وتغيير مستمر؟ إن القرآن الكريم الحكيم ـ وهو دستور الأمة إلى يوم الدين ـ حين أعلن وقرر: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(١)، لم يترك، ولم يقصر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما وضع الأسس والقواعد التي تستضيء بها وتصلح كل شؤون الدنيا بمبادىء الدين القويم، فيقف الذوق الإيماني بالمؤمن ـ وبالمؤمنين جميعاً ـ عند حد الإقرار والتسليم والطاعة، واختيار الأفضل لهم، والأفضل من بينهم، لإصلاح دنياهم ومعايشهم، وإقامة الشرع والعدل، والحرية والأمن، وهذه إمامة وقيادة؛ واختيار الأفضل لهم، والأفضل من بينهم، للمحافظة على تعاليم ومبادىء دينهم وشريعتهم: فلا يبتدع ولا يقتطع، لا يحيد ولا يميل، لا ينجرف ولا ينحرف، لا

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

يفرِّق ولا يمزق.. ولما كان الإسلام لا يعرف البابوية ولا الكهنوتية، إذ أن كل مسلم راعٍ ومسؤول فإن مسؤولية القيادة الدينية تصير مسؤولية عامة، يتحمل كل مسلم ومسلمة منها نصيباً مفروضاً: في قوله، وفعله، وفكره، وسلوكه، ومظهره، وذوقه؛ فهو بقدْر ما، وعلى نحو ما، قائد وداعية، يسعى لعيشة راضية، ويبتغي في أُخراه جنة عالية.

اختار رسول الله ﷺ الصديق لإمامة الدين، ثمّ اختاره الصحابة في مجلس (سقيفة) بني ساعدة عقب وفاة النبي لإمامة الأمة (أي رئاسة الدولة). لا ضيْر، ولا حرج. فكان من مآثره الخالدة الباقية إلى يوم القيامة: جَمْع القرآن الكريم في مصحف واحد (ولن ندخل في تفاصيل ذلك فهو أمر معروف مبسوط في المراجع والكتب)[١]، وردّ مانعي الزكاة إلى الصواب، لأنها ركن من أركان الإسلام، وموقفه مع عمر بن الخطاب في هذا الشأن يؤكد فطنته وفقهه المكين، وشجاعته في الثبات على الحق. وحارب أهل الرِّدة فرأب صَدعاً خطيراً كان يفرِّق بين المسلمين ويزلزل إيمان الضعفاء الواهنين[٢]. فجاء ذلك تصديقاً لتحذير الرسول الأمين البشير: «**يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر**».

وشيء آخر.

ماذا قال الصدِّيق رضي الله عنه في أول خطبة له بعد أن بايعه الناس بالخلافة الدنيوية؟ يقول الرواة: حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناس، إني قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيتُه فلا طاعة لي عليكم. ألا إنَّ أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذ الحق له، وأضعَفَكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

(١) أخرج أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قوله: أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر. إن أبا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين. وأبو بكر رضي الله عنه هو أول من سمى القرآن المكتوب مصحفاً.

(٢) أخرج ابن عساكر عن أبي حصين قوله: لقد قام أبو بكر يوم الرِّدة مقام نبي من الأنبياء.

واضح تماماً هنا أن رئيس الدولة يتكلم بلسان إمام الأمة. وكما قال بعض الصحابة يومها: لقد رَضِيَه رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟! إن هذه الخطبة الافتتاحية الموجزة، بمثابة «بيان الحكومة» الذي يُفصح عن منهج العمل الرسمي ومساره. والأساس فيه كما نرى: الحق، ثم العدل، وفي صيغة تعاقد ملزِم صريح بين الراعي والرعية، ولكل منهما دوره الإيجابي. فإذا استقام هو على الحق وأقام العدل، فعليهم مساعدته ومؤازرته؛ وإن مالَ أو أخطأ، فعليهم نصحه وتسديده، أي إرشاده إلى الصواب. وإذ يعرف إمام الأمة أن مسؤوليته الدينية أمام الله أكبر وأخطر، فإنه يُحِلُّهم من طاعته ـ كرئيس للدولة ـ إذا ما قصَّر هو في طاعة الله أو انحرف عنها. ولكي ندرك هذا جيداً، نشير إلى أن الصديق رضي الله عنه كان في البداية عازفاً عن رئاسة الدولة[1]، فقد اقترح أن يتولى أمرها عمر بن الخطاب فرفض عمر، واقترح عمر أبا عبيدة بن الجراح، فقال: أتبايعني يا عمر وفيكم الصديق؟

لكن هذه الخطبة الجليلة الجديدة على سمع الدنيا، بعد وفاة الرسول ﷺ، تفيض أدباً وذوقاً إيمانياً من مستهلها: «وُلِّيت عليكم ولست بخيركم»، «إن رأيتموني على باطل فسددوني»، «فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»، «أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق»، «أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه»، «أستغفر الله لي ولكم». إنها لمسات وضَّاءة متألقة، زادت وزيَّنَت، ولم تكن مجرد ومضات بلاغية أو كلامية عابرة. ولقد عاشها الناس ـ في الصدر الأول للإسلام ـ حقيقة يومية واقعة؛ فأدوا حقها، وأَمِنوا في ظلالها، وجنَوْا حلو ثمارها.

وشيء آخر.

موقف قد يبدو لنا اليوم طريفاً أو مستغرباً، لكنه يتفق تماماً مع طابع إمام

(١) أخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف: قال أبو بكر: والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت راغباً فيها، ولا سألتها الله سراً ولا علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة...

الدين ـ أبي بكر ـ وخُلقه الإسلامي الصحيح، الذي أُشْرب صفاء الإيمان الغض النقي، المستمد مباشرة من نور النبي.

أخرج ابن سعد عن عطاء بن السائب رضي الله عنه قال: لما بويع أبو بكر، أصبح (أي في اليوم التالي لمبايعته بالخلافة) وعلى ساعده أبراد (جمع بُرْد أي ثياب) وهو ذاهب إلى السوق. فقابله عمر، فسأله: أين تريد؟ قال أبو بكر: إلى السوق. قال عمر: تصنع ماذا وقد وُلِّيت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أُطْعم عيالي؟ (وكان أبو بكر تاجراً). فقال عمر: يَفْرض لك أبو عبيدة[١]. فانطلقا إلى أبي عبيدة. فقال لأبي بكر: أفرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أَوْكسهم (أي أقلهم شأناً)، وكُسوة الشتاء والصيف، إذا أَخْلَقْتَ شيئاً (أي بلِيَ وتمزق) رددْتَه وأخذْتَ غيره!

هكذا: يرضى إمام الدين لإمام الدنيا مقدار طعام رجل متوسط الحال من المسلمين، له ولأسرته، وكساء واحد للصيف وآخر للشتاء، يتسلمهما «عُهدة» تُرَد بالية مهترئة ليأخذ غيرها. وهو أبو بكر التاجر الناجح الذي كان مشهوراً بين قريش والعرب باليسار والوفرة، ومشهوراً بين المسلمين بالعطاء السخي بلا حساب[٢].
فلما أوشك على الخروج من الدنيا ولقاء ربه ترك هذه الوصية لابنته..

---

(١) أي: يخصص لك أبو عبيدة بن الجراح راتباً. وكان أبو بكر اختار أبا عبيدة أميناً على بيت مال المسلمين، وهو أول من تولى هذا المنصب.

(٢) رُوي عن عبد الله بن عمر: أسلم أبو بكر رضي الله عنه يوم أسلم وفي منزله أربعون ألف درهم، فخرج إلى المدينة في الهجرة وما له غير خمسة آلاف، كل ذلك كان ينفقه في الرقاب (أي: في عِتق الضعفاء والأرقاء الذين أسلموا وهم تحت يد الكفار)، وفي العَوْن على الإسلام.
ورُوي عن علي، وابن عباس، وأنس، وجابر رضي الله عنهم، قالوا: كان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه. وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما لأحد عندنا يد (أي فضل) إلا وقد كافأناه، إلا أبا بكر، فإن له عندنا يداً يكافئه الله بها يوم القيامة. وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر». فبكى أبو بكر وقال: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله؟!.. ويا له من أدب عظيم، وذوق إيماني وضاء رفيع!

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي حفص رضي الله عنه: قال أبو بكر لما احتضر لعائشة رضي الله عنها: يا بُنَية، إنَّا وُلِّينا أمر المسلمين فلم نأخذ لنا ديناراً ولا درهماً، ولكنَّا أكلنا من جَريش (خشن) طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وإنه لم يَبْقَ عندنا من فَيء[1] المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح، وجُرْد هذه القطيفة، فإذا متُّ فابعثي بهن إلى عمر.

إنه لدرس بليغ للدعاة خاصة، أن يتقوا الله في أنفسهم ـ وهم قادة وقدوة ـ فلا تشرئب أعناقهم إلى مغْنم أو مطمع، أو تهفو نفوسهم إلى أبَّهة وترف ومنصب، وشهرة برَّاقة تزينها وسائل الإعلام المعاصرة، فتصرفهم عن التأسي بداعية الإسلام الأول صلوات الله وسلامه عليه، وعن الاقتداء بالخليفة الأول ـ الذي رضيه النبي إماماً وحفيظاً على شؤون الدين ـ لأن أمة الإسلام لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها. وأي تبرير أو تعلل يخالف ذلك مردود ممجوج. إن الدعوة إلى الله ـ بإخلاص وذوق وصدق ـ أو القيام بشؤون الدين، ليست تجارة ولا حرفة: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[2].

وهنا تطل علينا آية قرآنية مبهرة مرشدة، في سورة النجم، تقشعر منها جلود الذين يخشون ربهم، وأوْلى بالدعاة إلى الله أن يكونوا في مقدمة هؤلاء، إذا ما أخلصوا النية وعقدوا العزم، والله ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[3].

(١) الفيء: أموال الخراج والغنيمة من الحرب. وبعير ناضح: جمل يُستسقى عليه. جُرد: بقايا بالية.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٧.
(٣) سورة غافر، الآية: ١٩.

في السمٰوات العُلَى

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[١].

لكل نبي أو رسول وظيفتان في هذه الحياة الدنيا: التبليغ، والقدوة. ولن ندخل في دائرة الخلاف حول من هو النبي، ومن الرسول. ولكن يكفينا القول بأن النبي إذا كان مرسلاً إلى أمة، أو قوم، أو إلى الناس جميعاً، فهو حامل رسالة من رب الناس، وعليه إبلاغها[٢] بكل الأمانة والصبر والصدق، مهما لقي من تكذيب أو عَنَت[٣]، أو صادف من محاولات الإغراء والإغواء ـ من النفس أو الشيطان أو الناس ـ لكي يداجِن أو يداهن أو يحيد[٤].

وبديهي أن المرسِل ـ عز وجل ـ يختار من الناس أتقاهم وأنقاهم وأفضلهم لحمل رسالته ويُعدُّهم ـ بعلمه وقدرته ـ لتلك المهمة وعلى مستواها. وعلى الرغم من هذه الحقيقة البديهية يسجل القرآن الكريم: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾[٥]. لماذا؟

لأن إيمان الأنبياء والرسل إيمان خالص مصفًّى، لا دَخَل فيه ولا دَغَل[٦].

---

(١) سورة النجم، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

(٢) ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٦٧).

(٣) ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف، الآية: ٣٥).

(٤) ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (سورة القلم، الآية: ٩).

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

(٦) الدخل (بفتح الخاء): الخديعة والمكر. والدغل (بفتح الغين): الدهاء والفساد.

ولما كانوا هم المثال والقدوة لأولئك الذين سيأتون من بعدهم لحمل قبس من أنوار الرسالة والهداية ـ ونسميهم الدعاة ـ نسمعهم يشددون على قيمة الإخلاص لله، ولله وحده في السر والعلن ليكون الإيمان بحق «ما وقر في القلب وصدَّقه العمل». ولئن كانت هذه دعوة صريحة موجَّهة إلى كل المؤمنين والمؤمنات ـ لأن كلاً منهم يمثل الإسلام في جوهره ومظهره ـ فإن الداعية أوْلى بذلك وأكبر مسؤولية بين يدي الله تعالى الذي يَمْقت الذين يقولون ما لا يفعلون. والإسلام لا يعترف «برجال دين» لهم قداسة ومَنَعة، وإنما يوقر الإسلام علماء الدين ـ كأي علماء مؤمنين موحدين ينظرون ويتفكرون في خلْق السموات والأرض، وفي آيات الله الكونية، وفيما ينفع الناس ديناً ودنيا ـ فيرفع المجيدين المخلصين منهم درجات؛ وجعل ـ سبحانه ـ التفقُّه في الدين فرض كفاية على القادرين حتى ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بالسؤال أو طلب الفتوى، لعلهم يحذرون من الوقوع في الخطأ أو المعصية عن جهالة أو غفلة.

ولا يُطلب من «الداعية» الإعراض عن الدنيا، أو الحض على تركها كلية وتحقير شؤونها، وإلاّ فمن يَعْمر الأرض، ويصون العِرْض، ويحقق لجماعة المؤمنين ـ وأمة الإسلام ـ الأمن والرخاء والعزة والقوة (بكل أنواعها وصورها) في دنيا جُبِلت على إكبار الأقوى، والتزلف للأغنى، وإذلال الضعيف، وإرهاب الواهن المستكين، إذا خبا نور الهداية وغَبَش.

ولكن علماء الإسلام، دعاة الحق، لا يجعلون الدين مَطية للدنيا، ولا يتخذون الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وسيلة إلى اشتهاء ثراء أو جاه أو منصب. فإن حدث، يكون خطأً في القصد، وخطأً في الفهم، وفساداً في الذوق، وإفساداً للناس. ولا حرج على الداعية أن يعمل ويتكسب حلالاً طيباً ـ كسائر المؤمنين العاملين ـ وكما كان يفعل أكابر الصحابة رضوان الله عليهم، وهم العلماء الأعلام، والدعاة الهداة الصالحون المصلحون بعد رسول الله ﷺ. فإذا ما أقبلت دنيا، أو فُرِض عن غير سعي أو لهفة لقب أو شهرة أو منصب، ظل في تقدير الداعية إلى الله ـ الإمام أو العالم ـ عَرَضاً ظاهراً زائلاً، لا يتسرب بريقه

الخادع إلى قرارة النفس، ولا إلى مكنون الذوق والضمير: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟!

في مكة، عندما أُمر رسول الله ﷺ بإبلاغ الدعوة، لقي صلوات الله عليه من قريش استهانة وإيذاء ومكراً. فتوجه إلى ثقيف بالطائف يرجو منهم المساعدة والنصرة، فقابل رؤساءهم، فردُّوه رداً سيئاً قبيحاً. فلما طلب منهم أن يكتموا ما دار بينه وبينهم حتى لا تعلم قريش فيشتد أذاهم وتطاولهم عليه، رفضوا هذا المطلب في استعلاء ونذالة. وزادوا في خسّتهم، فأرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يطاردونه ويقذفونه بالحجارة حتى أدْموا قدمه. فلما ابتعد عنهم، جلس إلى ظل شجرة يدعو الله بكلمات تفيض إيماناً، وتصبُّراً، وثباتاً، وخشوعاً، وتسليماً لمالك الملك في السموات والأرض: «**اللهم إني أشكو إليك ضَعف قوّتي وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَن تَكِلُني.. إنْ لم يكن بك غضَب عليَّ فلا أُبالي..**».

إنها مناجاة الواثق بربه، الخاضع لمشيئته، الذي أسلم محياه ومماته لله، حتى كانت آخر كلماته في هذه الدنيا (كما أخبرت أم المؤمنين عائشة): «**إلى الرفيق الأعلى**». فالغاية، والمبتدأ، والمنتهى.. هو: الله.

ولذا، تَحْدث بعد هذه المناجاة المحمدية، في ساعة الشدة والعُسرة واحتمال ما لا يحتمله إلا أولو العزم، تَحْدث سلسلة من الوقائع العجيبة المنبِّهة. يقول الرواة: فجاء جبريل عليه السلام يحمل رسالة عُلوية: «إن الله أمرني أن أُطيعك في قومك[1]، لما صنعوه معك». فقال النبي: «**اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون**». فقال جبريل: «صَدقَ مَنْ سَمَّاك الرؤوف الرحيم»!

لم يَسخط النبي المطارَد المهان، ولم يَدْعُ بدعاء نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾[2]، أو: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾[3]. ولم يقل لجبريل

(١) أي: فيما تأمرني أن أفعله بقومك.
(٢) سورة نوح، الآية: ٢٦.
(٣) سورة القمر، الآية: ١٠.

مثلما قال موسى عليه السلام: ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[١]. ولم يذهب مغاضباً كما فعل يونس عليه السلام[٢].. وإنما اختار خاتم الأنبياء «**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»!... فماذا نقول «للدعاة» - في عصرنا المتباعد - الذين يَصُبُّون اللعنات والنقمات؟ وبماذا يبرر «البعض» تكفير إخوانهم «المسلمين» لمجرد خلاف في الرأي، أو تنازع في حُكم، أو تطرف في جدل. والأدهى من ذلك وأَمَرّ، إثارة فتنة أو استعداء سُلطة، رداً لكرامة، واستحواذاً على قِوامة، وهم يحسَبون أنهم يحسنون صُنعاً! «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

وتمضي الرواية فتقول:

... فلما بلغ النبي ﷺ موضعاً يقال له «نخلة»، وفَد عليه نفر من الجن سمعوا منه قرآناً فأنصتوا، وتعجبوا، ثم أسرعوا إلى قومهم منذرين، وفيهم نزلت الآيات في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[٣].

هل كُرِّم بشر - من ولد آدم - بمثل ما كُرِّم به محمد رسول الله ﷺ: أن يكون رحمة وهداية للجن، في الوقت الذي كذَّبه قومه، وحَصَبه السَّفِلَة من الناس؟!. إنه قانون إلهي قائم أبد الدهر لا يتحول ولا يحيد: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[٤].

وتكريم بعد ذلك أكبر وأعظم وأجلّ..

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

(٣) سورة الأحقاف، الآيات ٢٩ - ٣٢. وفي سورة الجن تفصيل أوسع.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥١.

في مكة، وقبل الهجرة، أي في سنوات الإيذاء والمشقة والعَنَت، يتلقى خاتم الأنبياء دعوة لزيارة السموات العُلَى، ليلة الإسراء. وكأن هذه الدعوة الإلهية تقول: لا تألم، ولا تحزن.. لئن ضاقت بك صدور الأشقياء والسفهاء من الناس، فالسماء مفتحة الأبواب لاستقبالك، مرحبة بك، فترى وتسمع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هبط «آدم» بزلته[١] من السماء إلى الأرض، وصعد «محمد» بمصداقيته[٢] من الأرض إلى السماء. وآدم عليه الصلاة والسلام أول الأنبياء أبو البشر؛ ومحمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء رحمة للعالمين. فمن ذا الذي يأتي بعد ذلك، ويُخْلص الإخلاص الكامل المصفى لله، ثم لا يلقى تكريماً ونُصرة منه، سبحانه، على أي نحو من الأنحاء؟ ألا يدخل الذوق الإيماني هنا، محصِّناً ومنشِّطاً، ليطرد عن المؤمن ـ والداعية خاصة ـ وسواس النفس وهواها، وقد عاهد الله على الصدق في القول والإخلاص في السعي والعمل؟

إن حادثة الإسراء ـ والمعراج ـ مذكورة في القرآن الكريم، في مستهل سورتي الإسراء، والنجم، وشروحها مبسوطة في الكتب متداولة في الخطب والمواعظ مع مناسبتها من كل عام. لكننا نتوقف هنا عند سبب الزيارة المباركة في أول سورة الإسراء: ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾، وعند الآيتين من سورة النجم: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[٣].

أيَّة آيات يا تُرى تلك التي رآها رسول الله محمد ﷺ؟ وكيف؟ وأين؟ لا أحد مطلقاً يعرف، ولا يستطيع أن يصف. والأحاديث الصحيحة التي وردت عن الإسراء والمعراج لا توضح، وما كان لها أن تفسر وتشرح. لأنه صلوات الله عليه «أُري» بقدرة الله ومشيئته، لا بقدرته البشرية وإرادته. فالمخ وأجهزة الحواس في الإنسان

(١) الزلَّة في اللغة: انزلاق القدم من غير قصد، وفي الدين: ارتكاب ذنب بغير قصد.
(٢) أي: تصديق الفعل للقول، أو الإخلاص الكامل في السعي والفكر والقصد.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ١٧ ـ ١٨.

محدودة الاستطاعة والطاقة، وما رآه ـ يقيناً ـ يفوق تلك المحدودية القاصرة إزاء ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾. إذن، تعجز الكلمات البشرية عن الوصف، وعن السرد، وعن التصوير. وما كان ينبغي لمن اختصه الله تعالى بهذه الدعوة، وبهذا التكريم العظيم الفريد، أن يتحدث عنه مفصَّلاً ـ أدباً وذوقاً ـ إلا بالقدر الضئيل الذي يدركه البشر، ويَفيد منه المؤمنون. وكان من أدب الصحابة رضوان الله عليهم وحُسن ذوقهم، أنهم لم يسألوا كثيراً لمعرفة ما حدث، وما رأى وما سمع[1]. ولا يفيدنا في شيء، أن ينتحل الشرّاح والمفسرون من بعد، توضيح ألفاظ مثل «البراق» من البرق، و«سِدرة المنتَهى» بأنها شجرة نبق في السماء السابعة ـ هكذا! ـ وشجرة النبق يعرفها جيداً سكان الأرض الفانية، فلا يقيمون وزناً كبيراً لثمارها وخشبها. فهل هذه إحدى ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾؟!.

إن الليل والنهار آيتان من آيات الله، وتصريف الرياح آية، والسحاب المسخر بين السماء والأرض آية، والمطر آية، وإحياء الأرض بعد موتها آية، وكذلك الشمس، والقمر، والكواكب، والنجوم، والمجرّات، والحياة، والموت.. لكنها آيات الله في الكون المنظور أو المدرَك أمام كل الناس، ويحار في فهمها وكشف أسرارها العلماء جيلاً بعد جيل. أما «آيات الله الكبرى» فتلك أكوان وأمور وشؤون وعوالم ومخلوقات أجلُّ وأعظم، لا يعلمها إلا مالك الملك، خالق السموات والأرض، سبحانه وتعالى؛ وقد «أُري» النبي محمد ﷺ بعضها[2]: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾[3].

---

(١) من حُسن ذوق أبي بكر الإيماني أنه لم يسأل النبي عن حادثة الإسراء أصحيحة هي؟ وماذا كان فيها. وعندما جاءه نفر من قريش يسألونه ساخرين: هل تصدق ما يقوله صاحبك؟ قال بلا تردد: إن كان قال ذلك فقد صدق! فسُمِّي من يومها بالصدِّيق.

(٢) الشيء اللافت للنظر حقاً ـ وهو رائع مدهش ـ أن القرآن الحكيم لم يرتب أحكاماً على حادثة الإسراء، مع أنها معجزة في ذاتها فريدة مبهرة. وهذا يؤكد أنها كانت «دعوة خاصة للزيارة والتكريم والمواساة» في السموات العلى. وأيضاً: لتوضيح أن الإسلام هو الدين الحنيف الحق، خاتم الرسالات السماوية إلى أهل الأرض، تجاوز من أول الوحي عصر المعجزات الخارقة انتقالاً إلى عصر العقل واكتمال الرشد، بمبادئه وتشريعاته وأحكامه، وفيها كل صلاح لحياة الناس في الدنيا، وسعادتهم في الآخرة.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

فماذا كان من أمر الرسول ﷺ بعد أن رأى تلك الآيات الكبرى؟ تطالعنا الآية القرآنية في سورة النجم بوصف عجيب لحالته: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾. هنا نتوقف لننظر ونفكر، وواجب على كل مؤمن ـ وكل داعية إلى الله ـ أن ينظر فيه، ويفكر طويلاً، ثم يقيس مدى إيمانه وإخلاصه وصدقه بهذا المقياس الصحيح.

والزَّيْغ في اللغة: الميل عن الاستقامة. تقول العرب: رجل زائغ، وقوم زاغَة وزائغون. والطغيان: تجاوز الحد، مثل طغيان الماء، وطغيان المرء في العِصيان.

ظل النبي محمد ﷺ في هذا الموقف الفريد، وفي مواجهة الآيات الكبرى التي يراها، ظل ملتزماً حد الاستقامة، بلا ميل ولا تجاوز، ومحافظاً ـ بإرادته وإخلاصه الصادق ـ على التوجه كلية نحو الغاية الأسمى، والأعظم: الله، إلى الرفيق الأعلى.

عجيب حقاً أمر هذا النبي، صلوات الله وسلامه عليه! في الحياة الدنيا: يرضى بالقليل، بل بالكفاف، وقت أن كان من «المستضعفين»، ووقت أن جاءته الأموال والغنائم، فيعطي منها عطاء من لا يخشى الفقر، ولا يستبقي لنفسه ولبيته منها شيئاً ولو يسيراً[1]. ثم ها هو في السموات العلى، لم تبهره الآيات الكبرى

(١) في صحيح مسلم: غزا رسول الله ﷺ حُنيناً، فبينما هو يسير في الغنائم، ينظر إليها ومعه صفوان بن أمية (وكان من أشد الناس عداوة للنبي لمقتل أبيه يوم بدر)، أطال صفوان النظر إلى الغنائم في شِعب ممتلىء بالغنم والنعم. فقال له النبي: «أبا وهب يُعجبك هذا الشِّعب؟». قال: نعم. قال النبي: «هو لك وما فيه»! فقال صفوان: ما طابت بهذا إلا نفس نبي. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله!.
ـ وأعطى أكثر من واحد (قيل نحو ستين من المؤلفة قلوبهم) مائة من الأبل.
ـ وحُمل إليه تسعون ألف درهم، فوُضعت على حصير، ثم قام إليها يُقْسِمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها كلها.
ـ وروى الترمذي عن مُعَوِّذ بن عفراء: أتيتُ النبي ﷺ بطبق من رُطب وقِثاء، فأعطاني مِلْءَ كفه ذهباً.
ـ وجاءه رجل فسأله. فقال النبي: «ما عندي شيء، ولكن ابتَع عليّ فإذا جاءنا شيء قضيناه» ـ أي اشتر ما تشاء على حسابي وفي ذمتي فإذا جاء مال دفعنا ثمنه ـ فقال عمر: =

التي تعرض لها، فرآها، ولم تشغله لحظة عن التسبيح والحمد والذِّكر، ولم تنقطع أشواقه إلى ربه طرفة عين يزيغ بها البصر ويطغى. ولم يطلب لنفسه شيئاً على الإطلاق. فظل ثابتاً على مبدئه: «**إن لم يكن بك غَضب عليَّ فلا أُبالي**»، وإلى أن فارق الدنيا.

ليتنا جميعاً، والدعاة إلى الله خاصة، نضع أمامنا على الدوام هذه الآية القرآنية الوصفية: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾، لعلها تخفف قليلاً أو كثيراً من اندفاعات عصرنا المادي المضجر المقلق الشرس، فتعيد بالذوق الإيماني وصْل ما تراخى أو تهرأ وانقطع من روابط أساسية إنسانية نورانية بين المسلمين، وبينهم وبين السموات العُلى. فيزيدهم ربهم ثراء ورخاء وتراحماً وقوة، لتشهد الدنيا من جديد: ﴿خير أمة أُخرجت للناس﴾. . فهل تعود؟؟

= ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فظهر الاستياء على وجهه ﷺ. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً. فتبسم النبي وعُرف البِشر في وجهه وقال: «بهذا أُمِرْتُ».

- روى الشيخان عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً (متوالية) من خبز حتى مضى لسبيله (أي توفي). وسبق حديثها: ما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً.

- وروى البخاري عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه: ما ترك رسول الله ﷺ إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة.

أذواق الأنبياء

الأنبياء جميعاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ صفوة البشر، وقادة الإنسانية إلى الاستقامة والسمو والصلاح والهدى، بما حملوا من رسالة التوحيد والتنزيه والحكمة. إنهم جميعاً مسلمون، مؤمنون، مخلصون، صادقون. لكنهم بشر، لا تفارقهم طبيعتهم البشرية التي عصمها الله من الزيغ والهوى، ومن ارتكاب الكبائر والآثام. فلا عجب ولا غرابة أن نراهم في بعض المواقف: يغضبون، ويألمون، ويخافون، ويستيئسون، ويمرضون، وتضيق صدورهم، وتذهب نفوسهم حَسَرات. وفي حديث أبي هريرة الذي يرويه الشيخان، دعاء خاتم الأنبياء ـ الرؤوف الرحيم ـ ﷺ: «**اللهم إني اتَّخذ عندك عهداً لن تُخْلِفَنيه، فإنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيتُه، شَتَمْتُه، جَلَدْتُه، فاجعلها له صلاة وزكاة وقُربة تُقربه بها إليك يوم القيامة**».

وفي القرآن المجيد مواقف كثيرة لبعض أنبياء الله ورسله، في ظروف الحياة المختلفة الضاغطة، نتعلم منها حُسن الأدب، وحُسن الذوق، وحُسن الصلة بالله، وبأنفسنا، وبالناس. فليس يُطلب من المؤمن أن يكون ملاكاً، وإنما يُحَثُّ على امتلاك زمام نفسه وإرادة الخير فيه، يوماً بيوم، وساعة بعد ساعة، حتى لا يقع نهباً للهوى، وفريسة للشيطان المترصد المتوعِّد: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1]. ولقد أعطانا دستورنا القرآني الحكيم أسلوب «العلاج» الناجع السريع المفعول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1].

وهذه أمثلة مرشدة موضِّحة لمواقف وأذواق بعض الأنبياء ـ من القرآن الكريم ـ ليس القصد منها مفاضلة بينهم، فقد نهانا الله تعالى ورسوله ذو الخُلق العظيم عن ذلك[2]، وإنما لنتعلم في ظروف الحياة المختلفة كيف نَؤُوب سريعاً إلى الرشد والصواب، فنحسِّن ونزيِّن أذواقنا وطبائعنا، فتزداد الدنيا بنا، ومن حولنا، إشراقاً، وجمالاً، وسلاسة، وبهجة، عسى أن يرضى عنا ربنا فيُرضينا، ويُدخلنا برحمته في عباده الصالحين.

في البداية، قبل تناول مواقف الأنبياء، نتريَّث قليلاً عند «ابنَيْ آدم» ـ وهما ليسا من الأنبياء ـ وقد قَصّ علينا القرآن الكريم حواراً دار بينهما انتهى بأول جريمة قتل حدثَت على الأرض، وفي ذاك الحوار فائدة.

حوار الحلم والحقد

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

ها هما أَخَوان، لم يذكر القرآن اسميهما، ولم يسمِّهما الرسول ﷺ (في الثابت من الأحاديث الصحيحة)، فلنلتزم بأدب القرآن والسنَّة، ولا حاجة إلى

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) في خواتيم سورة البقرة، الآية: ٢٨٥: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . . .﴾. وفي حديث النبي الذي رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري: «لا تُخيروا بين الأنبياء».

(٣) سورة البقرة، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

استعارة ما ورد في مصادر أخرى محرَّفة غير موثقة، وفي الآيات القرآنية تبيان وغَناء.

المشهد: أَخَوان ساعيان في عمل يحمل سمة البر والخير. «قدَّما قُرباناً، أي شيئاً يتقربان به إلى الله. إذن، هو تنافس في الطاعة لله وفعل الخيرات؛ أو لعله تكفير عن ذنب، أو وفاء لنذر، أو أداء لواجب. كل شيء جائز، لكن المهم: أنه عمل كان القصد منه والنية فيه: التقرب إلى الله. والطريق إلى الله مستقيم واضح المعالم، لا التواء ولا ضباب ولا ظلام فيه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]. وصفات المتقين في القرآن محددة جلية. فلا يُرْجَى القبول عند الله وفي النفس حقد وحِنْث وسخيمة[2]. ولا يُرجى الرضا من الله إلا بالقول الحَسَن، والعمل الجميل الطيب. فبدا لهما بطريقة يعلمها الله، أن قُربان أحدهما قُبل، والآخر رُفض. لماذا؟ بسبب مبدأ إلهي، أو قانون سماوي أفصح عنه صاحب القربان المقبول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾. ولا نبحث في الدوافع ودواعي الرفض وقد سكت القرآن عنها (في الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»). لكننا إذ نتتبع مسار الذوق الإيماني نراه واضحاً هنا في قول الأخ التقي ـ المقبول منه ـ لأخيه الذي توعده بالقتل: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾[3]. إلى هذا الحد يصبح الذوق الإيماني ركيزة للحلم إزاء رذيلة الحقد، حفاظاً على وشيجة الإخاء ورباط الدم والنَّسب. ومع بشاعة المشهد الذي تأباه الفطرة الصافية التقية (أن تتحول المنافسة ولو في فعل الخير إلى حقد وحرب وقتل)، يبرز العامل الحاسم في ضبط النفس، وفي صيانة القيم العليا، ومبادىء الأخلاق، ونفائس الروابط الأسرية والاجتماعية، وهو: «الخوف من الله رب العالمين». إن الخوف من الله أساس إيماني قوي منيع، أقوى من الأعراف والقوانين الوضعية في حماية الفرد، والمجتمع، والحياة ذاتها، بأفضل وأيسر السبل، وأقل الترتيبات والتكاليف، إذ يكفي أن يتزوَّد كل فرد بالإدراك الجيد،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

(٢) الحِنث (بكسر الحاء): الإثم والذنب، وأيضاً: خُلف القسَم أو اليمين. والسخيمة: إظلام وسواد وكآبة.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٨.

والفهم الصحيح، ومجاهدة النفس قدر ما يستطيع. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تنبّه إلى هذا كله وتحض المؤمنين والمؤمنات عليه، مثل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1]؛ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2]؛ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[3]؛ ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾[4]...

حوار العلم والجهل

العلم والجهل نقيضان. وصدقوا إذا قَرَنوا العلم بالنور، والجهل بالظلام. والعلم في ذاته نعمة، فيكون الجهل في المقابل نِقْمة. لكن ليس كل صاحب علم منعَّماً، وما كل جاهل بشقيّ. وإنما مرجع هذا وذاك، إلى حُسن أو سوء استخدام النعمة، وإلى كَيْس أو حُمق الخلاص من النقمة. وكما أن العلم مستويات وفروع؛ كذلك الجهل درجات وصنوف: فالجهل بالشيء خُلُوٌّ معرفته والعلم به؛ وجهل بالشيء مع معرفته والعلم به ولكن باعتقاد على نحو خاطىء فاسد مغلوط؛ وجهل بالشيء في مذموم الفِعال والممارسة سواء صدرت عن اعتقاد صائب أم طائش: فرُبَّ جهل عند البعض مرغوب مطلوب، ورُبَّ علم كان الجهل به أسْلَم وأنفع!

ومن جانب آخر، فإن العلم الصحيح الحصين الرصين، يستجلب لصاحبه الاحترام والإكبار والتوقير، إن وافق فعلُه فكْرَه، وتجنَّب ما يشين عند الناس ذِكْره، وتحرى الذوق الحسن في خاصة أموره، وفي عامة ما يطيب للناس. والجاهل ببعض الأمور قد يكون أيضاً كذلك (﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾[5])، إن هو

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢١.
(٤) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

استقام وأصلح، وتواضع في غير مذلة، وعَزَّ من غير إفساد أو استعلاء[1].

لكن قوم نوح عليه السلام، جهلوا، فأخطأوا، فأفسدوا، ثم أصروا واستكبروا وتمادوا، فأصيبوا ـ أو أصابوا أنفسهم ـ بمرض في العقل والذوق مُزمن، طال ولم يفارقهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. ونعجب إذ نرجِّح: أيهما أحق بأن يُتخذ مثالاً على الاحتمال المحتَسِب والصبر الجميل: نوحاً وقد شقي دهراً بلجاجة قومه وعنادهم وسخريتهم وسُخْف أذواقهم، أمْ أيوب وقد مَسَّه الضُّر بنُصُب[2] وعذاب، لسنين طوال؟!

إن مواقف نوح عليه السلام في القرآن كثيرة. يوافق مسار موضوعنا منها ما ورد في سورة هود (وفي غيرها نتركه لفطنة القارىء وتأملاته)، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3].

تلك آيات واضحة الدلالة والمعاني، نقرؤها في المصحف، ونسمعها في التلاوة، ونكاد نتفق على تصور المشهد أو الموقف. لكن الحوار الذي دار باختصار، يلفت النظر إلى الحكمة الكامنة في النص، وإلى العِبْرة المستخلصة من السياق[4].

---

(١) سورة القصص: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (الآية: ٨٣).

(٢) النصُب: التعب والمشقة الشديدة والإزعاج.

(٣) سورة هود، الآيات: ٢٥ ـ ٣٠.

(٤) الفرض من القصص (بفتح القاف) القرآني: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ=

في جانب: نوح عليه السلام ومعه القلة القليلة التي آمنت بالله الواحد الأحد، وهم نفر ضعاف عِجاف نُسطاء رُذلاء[1]. وفي الجانب الآخر: عُصبة الكفار من «عِلْية القوم»[2] لهم السيادة والقيادة، أطغاهم الترف والاستعلاء. ولكل من الفريقين أذواق وأشواق.

الذوق الإيماني واضح في أسلوب التخاطب عند نوح عليه السلام، إذ يغلب عليه ـ مع ما نعلم من حلمه وصبره وتحمله الطويل ـ هدوء ورقة ولين وحُسن مجادلة: ﴿يَٰقَوْمِ... يَٰقَوْمِ... يَٰقَوْمِ﴾. ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ أي ناصح أمين أنبِّهكم إلى سوء العواقب، ولذلك قال بعدها: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾؛ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾. ثم إنه يستخدم المنطق السديد في الدعوة إلى الله: لا إجبار ولا إكراه. ويتواضع في غير مذلة أو ضَعة، فيبين لهم أن الله اختصه بالنبوة وتبليغ الرسالة وهي في جوهرها رحمة بهم وهداية إلى الفلاح والنجاة، وإن خَفى عليهم ذلك ولم يدركوه: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾. ويبدو من السياق أنهم طلبوا منه طرْد «المؤمنين الأراذل» تكبراً عليهم واستنكافاً من مجالستهم. فردَّ مطلبهم من غير خشونة ولا تبكيت، وإنما بالبيان والترشيد: ليس من الذوق طردهم لمجرد فقرهم وتأففكم من مظهرهم (وقد يكونون ضحايا ظلم واستنزاف هؤلاء الملأ)، لأنكم تجهلون أن الإيمان لا يقاس بمستوى الثراء والفاقة، ولا بمظاهر النعيم والشَّظف. وكيف يُطرد مَن جاء ـ طوعاً بإرادته ـ مؤمناً ملبياً أياً كان حظه من الدنيا وزينتها، وفوق الكل رحمٰن رحيم، سميع عليم، جبار شديد؟؟

هكذا كان ذوق الإيمان فياضاً في حوار نوح، عليه السلام، مثلما كان متشوقاً إلى هدايتهم وإرادة الخير والرحمة لهم، بينما أفصحوا هم ـ بكفرهم

= يُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ (ختام سورة يوسف).

(١) كلمة رذلاء هنا لا تُفصح عن التدني والخسة بقدر ما تشير إلى التفاهة والفقر.

(٢) كلمة الملأ تدل على مجموعة مترابطة متحدة الرأي يملأ مظهرها المترف عيون البسطاء والغوغاء تعجباً وانبهاراً.

وعنادهم ـ عن فساد الذوق، وخَطَل الرأي، وسفاهة الحجة، فكان من أمرهم ما كان[1].

اعتذار سريع

موقف آخر في نفس السورة ـ هود ـ يعلمنا حُسن الذوق في السؤال، وفي الرجاء، وعند بثّ الشكوى وطلب العون. تقول الآيات بعد أن حل الطوفان:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾[2].

قلنا في مفتتح هذا الكتاب: إن الذوق الإيماني متمم مُهذب للذوق الخاص، ومُجَلِّل مُجمِّل للذوق العام. ولن يَحُض على ذلك تشريع بشري، ولا برنامج حزب أو نظام.

لكنا هنا إزاء موقف قد تبدو فيه للنظرة الأولى غرابة أو مغالاة: أب يُشْفق على ابنه أن يهلك مع الهالكين، فيتوسل إلى صاحب الأمر والنهي أن يُنقذ حياة ابنه، خاصة وأن الآمر الناهي ـ سبحانه ـ طلب من الأب أن يحمل معه في «سفينة النجاة» أهله، والابن من الأهل، فكيف يُرفض رجاء الأب، فيهلك الابن، بل ويُلام الأب على هذا الرجاء أو المطلب الطبيعي الغريزي، ويوعَظ بتجنُّب أفعال الجاهلين؟!

---

(١) يبدو أن من آفات الترف الطائش المرذول هذا الانحراف في الشعور والفطرة والذوق والمزاج، الذي يثير الاشمئزاز من البسطاء والضعفاء والفقراء. ولقد تكرر في آيات القَصص القرآني طلب «السادة المترفين» طرد المؤمنين المستضعفين. وحدث ذلك مع خاتم الأنبياء رسولنا الأمين ﷺ: في سورة الأنعام، والكهف، وعبس.

(٢) سورة هود، الآيات: ٤٥ ـ ٤٨.

رحم الله الفاروق ابن الخطاب إذ قال يوماً: إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكني أحمل همَّ السؤال (أو الدعاء)! وهذا حق.

إن الذوق الإيماني هنا يؤدي ـ لو أحسن الإدراك اليقظُ السديد استخدامه ـ دوراً حاسماً مانعاً. يحسم التردد في الطاعة الكاملة، ويمنع المؤمن أن يجادل في أمر الله. وهل تردد إبراهيم عليه السلام في تنفيذ أمر ربه (عَبْر رؤياه الصادقة) بذبح ابنه؟ وهل تردد ولده ـ إسماعيل عليه السلام ـ في التسليم والاستجابة؟ إن الجانب البشري في نوح عليه السلام كان هو الغالب في موقف الطوفان الهائل المروِّع، وقد دعا ربه بعد أن أصبح الهلاك الشامل حقيقة واقعة، في مشهد مُوجع مُفزع: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[1]. فهل على الأب من حَرج أن يجزع ويستغيث بالمغيث لإنقاذ ولده؟ نعم! هنا في مثل هذا الموقف بالذات تكون الإجابة: نعم، فيه حَرج وأي حَرج!

لن نخوض فيما انتحله بعض المفسرين من تحديد «هوية» هذا الابن: ابن نوح حقيقة، أم مجازاً؛ أكان يَدَّعي أمام أبيه الإيمان ويُضمر الكفر؟ أم كان ابن امرأة نوح من رجل آخر ونبي الله لا يدري (هكذا التبجح والتطاول على الأنبياء صلوات الله عليهم!!) لأن القرآن أشار إليها مع امرأة لوط بالخيانة في سورة التحريم[2]... لا شأن لنا بكل هذا التحايل أو الانتحال، ولن يفيدنا في شيء. فمن حُسن الذوق أن نسكت على ما سكت عنه القرآن والسنَّة، ونكتفي باستخلاص الدرس المفيد لنا والعِبْرة.

ما كان يجب على نوح عليه السلام أن يسأل ربه أن يُنقذ ابنه، لأكثر من

(١) سورة هود، الآية: ٤٢.

(٢) الآية: العاشرة. ولماذا يُقصرون الخيانة على ارتكاب الفاحشة المعروفة؟ إن ألوان الخيانة كثيرة وشائعة بين الناس. ويكفي أن تنصرف زوجة نبي عن الذي يدعو إليه زوجها، أو تعارضه، أو تنكره، أو تعتقد غيره وتحرض عليه. أليست كل هذه خيانات؟ وهل يُقبل من زوجة زعيم سياسي مثلاً (والأنبياء أطهر وأكرم) أن تعارض آراء زوجها وتسفهها وتصد الناس عنه؟ وسورة التحريم ذاتها كانت تنبيهاً وعصمة لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن من مضايقة الرسول وإغضابه.

سبب، فالقرآن الكريم يقص ـ وهو حق وصدق ـ بكل الوضوح تطور الحدَث، ويعرض الأسباب والنتائج.

المسألة هنا: وضع حد نهائي قاطع بين الإيمان، والكفر، بعد نحو ألف سنة من التبليغ والترشيد والنصح، ثم التحذير والتخويف. بعد ذلك جاء «الإنذار» الأخير بصدور القرار: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1]. وهو قرار نافذ لا محالة، لا تحيُّز فيه ولا محاباة أو استثناء. والأنبياء صلوات الله عليهم يعلمون ذلك، والمؤمنون الصالحون يعرفون ذلك: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾[2]. فإذا اتُّخذ القرار، فلا تصح بعده مجادلة أو مطالبة أو نقاش: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، لأنهم ظلموا أنفسهم أولاً بالإصرار الطويل على الكفر، واللجاجة، وعلى إظلام العقل والبصيرة. ثم ظلموا أنفسهم مرة أخرى بإيذاء رسول الله نوح (عليه السلام) والسخرية منه، بينما هو يدعوهم إلى الحق، وإلى النجاة، ولم يسألهم على ذلك أجراً ولا تميزاً أو رفيع منصب. وهم ظلموا أنفسهم إذ تعالوا في الأرض، وتمادوا في الضلال، باستكبارهم على خلْق الله، والتأفف من البسطاء والفقراء من الناس؛ فكان مقياسهم في التفاضل مادياً مزيّفاً، وتقديرهم لمكارم الإنسانية سقيماً طائشاً لا يستقيم. بهذا كله مجتمعاً، ظلموا أنفسهم مظْلمة كبرى، إذ جعلوها ـ بإرادتهم العنيدة ـ تتحول من فطرة الإيمان والتوحيد التي فُطرت عليها، إلى مَسْخٍ من الكفر والجحود وهو غريب عنها، وعن الكون والعوالم التي تعيش فيه، وكلها ـ بما تحمل ـ تَحْمد وتسبِّح وتطيع. فكان لا بد من استئصال هذا المَسْخ، وإزالة هذا الشذوذ أو النشاز، في بواكير العهد بالكفر والشرك وإرسال الأنبياء، فكان الطوفان.

وما كان يجب على نوح عليه السلام أن يدعو ربه إنجاء ابنه وقد أظهر التمرد والعصيان، وظن أنه سيتحدى أمر الله ويفوز. إن مجرد رد الولد على أبيه في

(١) سورة هود، الآية: ٣٧.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠١.

لحظات الإهلاك الحاسمة، يدل دلالة قاطعة على انحيازه لجانب الكفرة الضُّلاَّل، وإن تعلل بالوهم: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾(١).

فنوح ـ عليه السلام ـ وقد ظل على اتصال بالسماء ألف سنة إلا خمسين عاماً، ما كان ليخفى عليه أن المسؤولية أمام الله فردية، وأن الأقوال والأعمال ـ ولو كانت مثقال ذرة ـ هي التي تحدد المصائر، وتفرق بين أهل الحق والنجاة، وأصحاب الكفر والهلاك(٢). فالقول الحسن ينفع، والعمل الصالح يشفع، ولا ضمان لصداقة أو قرابة أو حَسَب، حتى مع صِلات الأبوّة والدم. وعلى هذا النحو يجب أن تستقيم حياة الناس في الدنيا ومناهج قيادتهم، لأن هذا هو معيار الرضا والقبول عند الله ومجازاتهم عليه في أُولاهم وآخرتهم: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾.

فلما تنبّه نوح وصدع لموعظة ربه، بادر على الفور بالاعتذار، مسبوقاً بالاستعاذة، أي «النجدة» من غضب الله، وهذا هو القصد من الذوق الإيماني: ليس مجرد إبداء الطاعة والاعتذار، وإنّما يُجَمَّل ذلك ويُزاد عليه بقَدْر من مظاهر التأدب والتلطف والصفاء والصدق: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾. هنا ذابت المشاعر الأبوية البشرية الواجفة في صحوة النوابض الإيمانية الروحانية الضاوية: تدعو، ترجو، تستغفر، تسترحم، تخاف الفشل والخسران ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

لذلك كانت العاقبة أنْ مَنَّ عليه الرحمن الرحيم بوعد مبارك يرجوه كل مخلوق على هذه الأرض، وكل إنسان مؤمن (ومؤمنة) مسافر أو مقيم: ﴿.. يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ ..﴾.

---

(١) سورة هود، الآيتان: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) في الحديث الشريف عن خاتم الأنبياء: «يا فاطمة بنت محمد اعملي فإني لا أُغني عنك من الله شيئاً..».

ومن قَبْل، مَنَّ الله تعالى عليه بنعمة أخرى، إذ علَّمه حُسن الدعاء: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

لقد أحسن نوح الاعتذار والرجاء، فأكرمه ربه بوعد فياض وصالح دعاء[2].

وفي الدعاء ذوق

إن دعاء أبي الأنبياء من بعده، إبراهيم عليه السلام، في سورة إبراهيم من القرآن الكريم، يفيض أدباً، وإيماناً، وحلماً، وذوقاً، ورقة، ورحمة ببلده، وبوالديه، وبأهله، وبذريته، وبجميع المؤمنين وغير المؤمنين. إنه دعاء جامع شامل عفيف لطيف، في كلمات أنيقة بسيطة جميلة، تحمل تألق الإخلاص الكامل الصادق، ووضاءة التجرد المصفَّى لله. لم يطلب لنفسه ـ وهو يعلم أنه خليل الرحمن ومجاب الدعاء ـ إلا شيئاً واحداً: الثبات الحافظ لنعمة الإيمان الموحِّد، وجوهره الصلاة، وعاقبته المغفرة يوم القيامة والحساب:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[3].

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) أوصى خاتم الأنبياء محمد ﷺ بأن يقول المؤمن (أو المؤمنة) هذا الدعاء: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إذا كان مسافراً (وفي الحج والعمرة) ونزل في مكان ليقيم فيه فترة، أو إذا انتقل من مسكن إلى مسكن جديد.

(٣) سورة إبراهيم، الآيات: ٣٥ ـ ٤١.

إن كل إنسان له سَمْع وقلب وعاطفة فياضة بمشاعر ندية نقية، حين ينتبه ثم يُصغي إلى هذا الدعاء الحُلو النبيل، لخليق بأن يتبع هذا الرسول الحليم الكريم، وبأن يهوي إليه فؤاده، فيحبه، ويُجِله، ويقتفي أثره، لكي ينال هو وذريته العابدة نصيباً من بركات هذا الدعاء، وقسطاً من رحمات الله وأُنعمه المتدفقة أبداً وقد أُجيب.

وإنه لفضل سابغ من الله ورحمة بأمة خاتم الأنبياء محمد ﷺ أنْ أمَرَه في محكم التنزيل فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[1]، وذلك بعد أن بيَّن بعض صفاته الخيِّرة الطيبة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾[2].

كيف لا يُحَب ويوقَّر مَن هذه صفاته، أو بعض صفاته؟ وكيف لا يكون المؤمن ـ والداعية إلى الله خاصة ـ على هذا النحو أو قريباً منه، أو مجتهداً ـ بنية خالصة وقصد ـ في الاقتداء به؟ إن إبراهيم عليه السلام لم يطلب لنفسه شيئاً من زينة الحياة الدنيا (وإن كان حلالُها طيباً مباحاً بشروطه)، وإنما طلب من ربه الأمن أولاً للبلد والولد؛ ثم أتبعه بطلب العصمة من الشِّرك، ثم إفاضة الرزق على الذرية الصالحة العابدة المصَلِّية الشاكرة، ثم طلب المغفرة لنفسه، ولوالديه، وللمؤمنين يوم الحساب في الآخرة. فالأمن إذن ركيزة لازدهار البلاد وصلاح العباد، ولا تستقيم معايش الناس وعباداتهم في بلد أو مجتمع يختل فيه الأمن، وتشتعل داخله الفتن، وتتنازعه الخصومات والصراعات والأزمات. أما غير المؤمنين، فقد ترك أمرهم لخالقهم ورازقهم، مناشداً جانب الرأفة والرحمة.

وإن المتتبع لمنهج إبراهيم ـ أبِي الأنبياء من بعده عليه السلام ـ يراه متسماً بالحُسن، والحلم، والرفق، وتجنب الخشونة والفظاظة المثيرة للقلاقل والفتن،

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة النحل، الآيات: ١٢٠ ـ ١٢٢.

حتى في نقاشه مع أبيه، وفي جداله مع قومه، وقد توعده أبوه بالهجْر والرجْم، وساقه المشركون من قومه إلى الحرق حياً.

وهو إذ يتحدث عن ربه ذاكراً شاكراً أفضاله وأنعمه وجلاله وعظمته، نلمح في ثنايا هذا الحديث ذوقاً دقيقاً رفيع المستوى، نادر المثال، ثم يُتبعه بالدعاء:

﴿. . رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾. . .﴾[١].

فكلمة «مَرِضْتُ» خالفت السياق في تتابع الأفعال: «خلقني»، «يهدين»، «يطعمني ويسقين»، «يشفين»، «يميتني»، «يُحيين». لقد تحاشى أن يقول: وإذا أمرضني، لأن المرض أذى وبلاء (وقد يكون عقاباً، وقد يكون ابتلاء). فكأنه يقول: لا يأتي من الله تعالى إلا كل خير، وكل حَسن جميل! صلاة وسلام على إبراهيم!

وفي الأحزان أيضاً..

لئن كان إبراهيم عليه السلام قد حزن إشفاقاً على مصير أبيه، فإن يعقوب عليه السلام قد كَمِد[٢] حسرة على ضياع ولديْه، وهو يعلم أن أحدهما نبي، حتى ابيضت عيناه من البكاء، وخيف عليه من الهلاك. ولكن.. لم يتجاوز، ولم يجزع[٣] بل إنه لم ييأس من رحمة الله، ومن ردِّهما إليه ولو بعد حين. ثم ظل ثابتاً على إيمانه وثقته بربه، سنوات وسنوات، إلى أن فاجأ الذين من حوله يوماً بأنه «يشم رائحة يوسف»، فظنوه كَبِر وخَرِف، فإذا به صادق مصيب وهم خِفاف غافلون.

كل هذا حَسن زكيٌّ في أذواق المؤمنين الصالحين، فما بالنا بنبي كريم حفيد

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٧٧ ـ ٨٣.

(٢) كمد كَمَداً: حزن حزناً شديداً مكتوماً، ومنه الكماد (بكسر الكاف) أي التسخين.

(٣) الجزع: نفاد الصبر، ونقيضه.

نبي، ولد نبي، والد نبي؟! لكن الأحسن جزاء والأزكى في أذواق العابدين العارفين، هذه التعبيرات الثلاثة التي صدرت عن يعقوب عليه السلام، جديدة وضاءة مُرْضِية، فأصبحت عند المحزونين أملاً وعزاء، وأمست عند المقْروحين سلاماً وشفاء:

- ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

- ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾[2].

- ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[3].

الصبر الجميل: تعبير إيماني وفَد على السمع وعلى القلب. فهو صبر على الابتلاء من غير فَزَع ولا شكاية. نعم، يحزن القلب، وتألم النفْس، ولكن في انضباط بقيد لا ينصرم من التسليم لله والرضاء بقضائه وطلب الرحمة والعون منه وحده، إذا كان بلاء مقدوراً مقضياً لا يُدافَع ولا يُنازَع. أما «الصبر الجميل» على ظُلم البشر واغتصاب الحقوق، وانتهاك الحُرمات، واستلاب الحريات والأوطان، فهو خَوَر وخنوع ومذلة، لا جمال فيه ولا دين أو ذوق.

في المرة الأولى، التزم يعقوب عليه السلام بالصبر الجميل مستعيناً بالله على ما زعموه من هلاك يوسف (قالوا: أكله الذئب!).

وفي المرة الثانية، أكد ثباته على العهد بالتزام الصبر الجميل مع الثقة الكاملة في رحمة الله ـ العليم الحكيم ـ وقدرته على إرجاع الولديْن المفقودين إليه. فتكون تلك العاقبة السعيدة ثمرة من ثمار الصبر الجميل.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

أما في المرة الثالثة، وقد اعتزل واشتد حزنه، وضاق بالأسى الكتيم صدره، وفقَد من البكاء بصره، لم يَسْلم من التبكيت والتشكيك والنقد، كما قالت العرب في أمثالها القديمة: ويل للشجيِّ من الخَلِيّ[1]. ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾[2].

هنا يبلغ الذوق الإيماني عنده الذروة: إذ على الرغم من كل ما كان يألم ويعاني ويكتم ويحتمل، لم يتأفف، ولم يسخط، ولم يرد اللائمين الناقدين رداً نابياً مهيناً؛ بل لم يناقشهم ويحاورهم، وإنما صحح مدار التفكير والتدبير بأن وضع المسألة كلها بين يدي الله تعالى، منطوياً على همومه وأحزانه ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ يكتم في حُرقة بعض مشاعره، وبعض شكوكه في سلوك أولاده الذين سوّلت لهم أنفسهم أمراً. وهو يعلم يقيناً ـ وهم لا يعلمون ـ أن ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[3]. فالأمل في رحمة الله لا ينقطع، واللَّجأُ إليه لن يخيب[4].

وفي السجن أذواق وأشواق..

وهذا بعض ما ورثه يوسف عن أبيه يعقوب عليهما السلام: اللجوء إلى الله ـ القوي القادر العليم الحكيم ـ في المحنة، عندما تعجز الطاقات البشرية عن المقاومة والمدافعة، وحين توصَد السُّبل وتنقطع الأسباب. إنه حقاً إيمان فيه ذوق.

في ثلاثة مواقف أيضاً قد تبدو مؤلمة، مزعجة، ضاغطة، ظل يوسف عليه السلام وثيق الصلة بالله، وقد أسلم أمره ومصيره إليه، يدعوه، ويستغفره، ويذكر فضله عليه، وهو صادق كل الصدق، مخلص كل الإخلاص فيما يفكر أو يقول أو

(١) أي: كم يشقى المحزون المكروب بملامة الخالي من الأحزان والهموم، أو الذي لم يجرب مثل مشاعره وانفعالاته.
(٢) سورة يوسف، الآيات: ٨٤ ـ ٨٦.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢.
(٤) كان من دعاء خاتم الأنبياء ﷺ إذا اشتد به كرب: «أعوذ بك منك».

يفعل. فكانت عاقبة أمره أن انتهى كل موقف من تلك الثلاثة بما يشبه المعجزة، تماماً كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾(١). ولو دقق أحدنا النظر، وتأمل مجريات أموره وأحواله، وكان صادقاً مع نفسه ومع ربه، لتبين أنه تعرّض يوماً ـ وربما في أكثر من يوم ـ لموقف محير معقد كاد يستيئس من انفراجه، وإذا به، من حيث لا يتوقع ولا يحتسب، ينزاح في رفق وسلام، برحمة من الله وفضل، وربما حدَّث نفسه أو مَن حوله قائلاً: إنها معجزة!

في المرة الأولى، أُلقِيَ يوسف في غيابة الجُبِّ ـ بمؤامرة من إخوته ـ وكان غلاماً. ولكن ليس مثل كل الغلمان: فهو مهيأ للنبوة، وكانت بينه وبين أبيه ـ يعقوب النبي ـ أحاديث وأسرار. وموقفه المفزع في ظلمات البئر هو الصورة، أو المشهد المقابل لموقف يونس عليه السلام في بطن الحوت: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾(٢). إن يونس عليه السلام كان مُلاماً، أما يوسف فكان غلاماً، وكان مظلوماً ضحية. فأسرعت نحوه عناية الله، تحفظه وترعاه، ثم تبشره وتطمئنه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾(٣).

في المرة الثانية، كانت «أزمته» مع امرأة العزيز ليُخْتَبر فيما منحه الله من نعمة الحُسن الملائكي مع الشباب والفتوة (وهو اختبار يسقط فيه ويتساقط كل يوم من هم أقل ـ أو على النقيض ـ من حُسنه المبهر أو من جمال امرأة العزيز). فثبت على إيمانه وعفته ونقائه، وزاد إذ وصفه القرآن على لسان امرأة العزيز بقولها: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾. أي أنه تحرى كل ما يعينه على العصمة، وبذل كل ما يملك من جهد وحيلة وطاقة، حتى لا يقابل الإحسان بالإساءة (بالنسبة لعزيز مصر)، ولا نِعم الله عليه بالتفريط والمخالفة، وفي هذا وذاك إيمان وذوق.

ثم إن هذا الموقف يذكِّرنا بمبدأ إيماني قرآني لا يحتاج إلى تفسير أو توضيح، وإنما ندوِّنه كما جاء في سورة الفتح (واسم السورة له دلالة): ﴿ ۞ لَّقَدْ

(١) سورة الطلاق، الآيتان: ٢ ـ ٣.
(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ١٥.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾[1]. يستطيع إذن أي مؤمن (أو مؤمنة) أن يتلمس رضاء الله عليه واستنزال السكينة والفتح من لَدُنْه، بمقدار ما يعرف هو عن قلبه، وعما يحمل أو يختزن ويُخفي في ضميره وفكره ووجدانه؛ ولا يعرفه سواه. إنه قانون يُريح ويكشف: يريح المؤمن الصادق المجتهد، ويكشف ضَعف وقصور الغافل المبتعد، لعله ينتبه فيسارع ويقترب، قبل فوات الأوان. إنه قانون يجب أن يُذكر على الدوام: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

ثم كان الموقف الثالث نتيجة للموقف الثاني، الذي مهد له الأول. والقصة معروفة للجميع مشهورة، وإن كانت تحتاج إلى كثير من النظر والتأمل، لاستخلاص المزيد والمزيد من الدروس والعِبَر ـ وهي المقصد القرآني ـ لتفيد المؤمنين والمؤمنات في دنياهم وأُخراهم.

في المرحلة الأولى من المحاولة والامتناع، ظهرت براءة يوسف ونزاهته العاصمة من الخيانة والريبة. لكن الرغبة الجامحة عند امرأة العزيز كانت غلابة عنيدة وربما زاد من تأجج تلك الرغبة وإلحاحها، صدمة الرفض؛ وهي سيدة المصر، وسيدة القصر، وسيدة الرافض. وبين الإصرار الراغب الغاضب الملتهب، وبين التهديد بعقاب لازِبٍ واصِب[2]، اختار يوسف السجن، فهو أبعد عن الشر، وأقرب إلى الحيطة، وأقوى على السلامة والعصمة: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾[3]. قالها صادقاً كرغبة منه ورجاء (مقابل رغبتها هي ومطلبها)، فاستجاب له ربه.

وأُدخل السجن. إنه «جُب» آخر. وهو مكان غير مألوف ولا ملائم للأنبياء، وقد يكون مألوفاً معروفاً عند كثير من الأئمة والدعاة.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٢) لازب: ثابت شديد الالتصاق. واصب: دائم لازم موجِع.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

مرة أخرى، لا تتخلى عن يوسف ـ عليه السلام ـ وهو في محتبسه، أذواق الإيمان، وأشواق النفس إلى تلقّي إنعام الله. فيصبر صبراً جميلاً، ويتلقى من الله علماً جليلاً، هو تأويل الرؤيا بالحق. ويسلك سلوكاً حسناً مشهوداً مقبولاً: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾(1). تلك شهادة نزلاء السجن، وهم خليط من عصاة ومذنبين وظالمين ومظلومين. وهي شهادة مطلوبة ـ وضرورية ـ للداعية إلى الله، وقيمتها في السجن أوفى وأصدق، حيث تتعرى النفوس تماماً من كل محاولات الإخفاء والمحاباة والمداراة والتزلف.

اكتسب الثقة إذن. فلم يستثمرها لنفسه، ولم يتخذها سُلَّماً لهوًى أو مطمع. وإنما جعلها مدخلاً إلى دعوة التوحيد، ومَرْقاة للصعود بالأرواح ـ ولو من داخل السجن ـ إلى آفاق علوية مطهرة رضية. فما إن سأله سجينان عن تأويل رؤيين لهما، حتى أعلن صراحة عن الحقيقة والعقيدة، وجوهرهما التوحيد الخالص، ولم يغفل الاعتراف بفضل الله عليه وعلى آبائه وعلى الناس أجمعين، مما يستوجب الذِّكْر والشكر ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾(2). والآيات واضحة في سورة يوسف (من الآية ٣٧ ـ ٤٠). ويلفت النظر، أنه عليه السلام كان يخاطب المسجونَيْن ويناديهما بقوله: ﴿يا صاحبيْ السجن﴾، ويتكرر منه ذلك، دليل أدب عظيم وذوق رفيع.

لكننا نتوقف عند الآية الثانية والأربعين من السورة، لأنها تحتاج إلى تفهم جديد، في ضوء الذوق الإيماني، خاصة عند الأنبياء والرسل. تقول الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾(3).

يكاد يُجمع الشرَّاح والمفسرون على أنّ نبي الله يوسف عليه السلام ضاق صدراً بالسجن، وأراد الخروج ـ إلى «الحرية» ـ فالتمس من أحد السجينين (الذي علم من رؤياه أنه سيكون ساقي خمر للملك) أن «يذكره عند ربه» أي يرجو الملك

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٦.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٨.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

النظر في أمره وإطلاق سراحه. هكذا قالوا، وما زالوا يقولون، والله أعلم!

فإذا أعدنا النظر في تحليل الموقف، وضعاً في الاعتبار «رصيد» يوسف عليه السلام من الإيمان والأذواق والأشواق منذ النشأة الأولى، نجد أن الأمر يختلف من عدة وجوه..

إن يوسف ـ عليه السلام ـ هو الذي فضَّل السجن على المعصية، فبعض الشر أهون من بعض. بإرادته إذن وبرضاه دخل، وإن كانت امرأة العزيز الثائرة الغاضبة هي التي دبَّرت وقدَّرت. وكان يدرك مسبقاً قسوة المعيشة في السجن وخشونتها، بالقياس إلى الحياة في قصر عزيز مصر وما فيها من رفاهية ونعيم؛ ومقارنة أيضاً بما كان ينتظره من ترف وافر وثراء، لو أنه أذعن ورضخ. فلما صَدَق النية وشدَّد العزم، ثبتَّه ربه وهيأ له سبيلاً للحِفْظ والنُّصرة، وهو تعالى أعلم حيث يجعل مشيئته.

والسجن بالنسبة ليوسف النبي ـ عليه السلام ـ ليس هو السجن بالنسبة لبقية نزلائه المعزولين ـ لجرائمهم ـ عن المجتمع. فالمكان عند الأنبياء والرسل وصالح المؤمنين هو مكان، مساحة من الأرض الفانية، ضاقت أم اتسعت، فيها يُعبد الله ويُسَبَّح؛ ومنها يعلو صوت الإيمان ما بقي فيها إنسان[1]. وفي السجن عَبد يوسف ربَّه وسبَّح وشكَر، ودعا إلى الإيمان والتوحيد ونبْذ الشِّرك والكفر، فوجد آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، ورجالاً يعرفون الحق والباطل، ويميزون الصالح من الطالح: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾. والداعية إلى الله ـ إن أحسن وصَدَق ـ صاحب رسالة حق يبلغها للناس أنَّى يكون وحيثما يكونون، لا يبغي منهم أجراً ولا

(١) كتب صحابي رسالة من بيت المقدس (القدس) إلى أبي الدرداء رضي الله عنه (وكان من كرام الصحابة المجاهدين حكماً وعلماً وفقهاً وورعاً) يقول فيها: أكتب إليك من الأرض المقدسة...، فرد عليه أبو الدرداء عُويمر قائلاً: إن الأرض لا تقدس أحداً، وإنما يقدس المرء عند الله خُلقه وعمله... ـ ويستثنى من المساواة في الأماكن الدنيوية، بيوت الله تعالى، المساجد، حيث إنها مخصصة للذكر والعبادة، وأي أرض يمكن أن تُطهر وتُنظف وتهيأ فتصبح مسجداً.

جزاء. فتستوي عنده طوائف المُصْغين إليه من عامة الناس، فعسى أن يصيروا من المهتدين. فماذا خسر يوسف، عليه السلام، من بقائه في السجن؟ أتقييد حركته وحريته؟ لا أحد بالطبع يحب الأغلال ويرغب في القيود. لكن القيد المفروض لا يقهر أصحاب الأفكار الوضاءة، والقلوب العامرة بالإيمان، والأرواح المتصلة بالسماء. ورغائب المؤمن من زينة دنياه ومباهجها الواهية قليلة، وإن أقبلت عليه وافرة حلالاً طيباً من رزق الله. بل إنه يعتبر الدنيا كلها سجناً موقوتاً لآماله العليا ولأشواقه إلى الله والجنة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾[1]. فهل كان ذلك كله غائباً عن تفكير يوسُف عليه السلام، الذي اجتباه ربه وعلَّمه من تأويل الأحاديث وأتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب، والذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2]، وبقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[3]...؟

فماذا يكون القصد من طلبه: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؟! أغلب الظن - وليس كل الظن إثماً! - أنه يعني: اذكرني عند ربك، أي عند الملك، بما سمعت مِنِّي، وما عَرَفْت عني، وبما شاهدتَ وشهدْتَ به. لماذا؟ هذا هو الأخطر والأعظم في القصة كلها، والله أعلم!... كيف؟

إنّ يوسف عليه السلام نبي رسول[4]. فأين يا تُرى مجال إظهار نبوة يوسف ومكان تبليغ رسالته؟ أفي بيت التي ﴿رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾؟ أم عند اللاتي لما ﴿رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[5]؟ أم تُراه

(١) سورة النجم، الآية: ٤٢.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٥٦.
(٤) في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ (الآية: ٣٤).
(٥) سورة يوسف، الآية: ٣١.

يقْصر الدعوة إلى الله على طائفة محدودة العدد من القتلة واللصوص والمذنبين السجناء (وقد لا يكون بينهم بريء أو مظلوم سواه) وجميعهم مَسْلوبو الحرية المدنية؟

إن قصة يوسف في القرآن الكريم فريدة متميزة عن باقي القَصص القرآني[1]، وكله حق وصدق، من عدة وجوه: فهي الوحيدة المكتملة في سورة بعينها، ولم تتكرر أجزاء أو مشاهد منها في سور أخرى. وهي تبدأ بحروف ثلاثة: ﴿الٓر﴾ وكأنها الضربات التقليدية على خشبة المسرح تنبّه للاستماع والتأمل في تدبر وصمت، والهدف: الاعتبار والتعقل والتيقظ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾[2]. وهي نموذج مدهش رائع ـ ولله المثل الأعلى ـ للصياغة «الفنية» وأسلوب التناول والعرض، والتفاعل والحوار، كأبلغ وأسمى ما تكون الصياغة، وأبدع وأجمل ما يكون الأسلوب.

ومنذ البداية، من مشهد الحوار السريع بين الأب وابنه الغلام (يعقوب ويوسف عليهما السلام)، تمضي الأحداث تتفاعل وتتشابك، ثم تُحكم عقدتها بدخول يوسف السجن، وفيه يظهر لأول مرة التمهيد لانفراج «الأزمة» أو «المشكلة» بالإفصاح عن «حقيقة» يوسف ـ عليه السلام ـ ومهمته الأساسية القادمة وهي: تبليغ رسالة الله بدْءاً من الملك.. والملك أولاً، هكذا شاءت حكمة الله. لماذا؟

لأنه بصلاح الملك تصلح الرعية؛ وحُسن تقبُّل الملك للرسالة وللرسول يحقق انتشاراً مباشراً وسريعاً للدعوة بين كل المستويات وفئات الشعب. وعندما يَحْدُث ذلك، تتحقق رؤيا يوسف ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ وتتم نعمة الله عليه، وعلى آل يعقوب، وعلى أهل مصر جميعاً. وهذا ما كان. فانتصر الحق على الباطل،

---

(١) القَصص (بفتح القاف) يعني: الإخبار الصحيح أو الإنباء الصادق، بخلاف القِصص (بكسر القاف) التي هي غالباً من نسج الخيال وتأليف الراوي أو الكاتب. والقَصص من قَص (فتح القاف فيهما) أي: تتبع الأثر الحقيقي.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ١ ـ ٣.

والخير على الشر، والفضيلة على الرذيلة، والعقل المدبر (يوسف في الاقتصاد بسبب رؤيا الملك) على الخرافة والجهل (الذين قالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾[1]).

لم يكن ملك مصر[2] بعيداً عن متناول يوسف وتفكيره. فهو ـ عليه السلام ـ قد نشأ وتربى في بيت العزيز الذي هو في منزلة الوزير الأول أو رئيس الوزراء. ولا بد أنه سمع كثيراً عن صفات هذا الملك، وأفكاره، وقدراته، وميوله، وربما رآه رأي العين: زائراً لقصر العزيز، أو لعله كان بين حاشية الوزير في زيارةٍ لقصر الملك، أو في مناسبة من المناسبات. وثقة يوسف في استقامة هذا الملك ونزاهته وإنصافه، كانت الدافع لأن يرفض ـ عليه السلام ـ الاستجابة لطلبه (الملك) إخراجه من السجن وإحضاره إليه قبل التحقيق في «الاتهام» المنسوب إليه وإظهار براءته. وهذا دليل آخر على أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يكن متعجلاً الخروج من السجن، متوسلاً ساقي الخمر (وليته كان ساقي عصير فاكهة طازجة!!) أن يَذْكره عند الملك ليطلق سراحه. وكيف يمتنع من كان «متلهفاً» وقد جاء الأمر بالخروج من السجن إلى القصر الملكي؟!

كان يوسف ـ عليه السلام ـ يأمل خيراً (للدعوة) من جانب الملك. لا شك في ذلك، والدليل: الآيتان الرابعة والخمسون والخامسة والخمسون من سورة

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٤.

(٢) يرى بعض العارفين بالتاريخ والعقائد، أن ملوك مصر الحقيقيين كانوا مؤمنين وموحدين، أو هم كانوا أقرب إلى الإيمان والتوحيد، وشواهد ذلك في الآثار القديمة وكتاب (برديات) الموتى وما يحوي من مشاهد عن الحياة الآخرة والبعث والحساب بين يدي الإله الأكبر، والجزاء الأبدي في الجنة أو الجحيم، كل هذه الشواهد تؤكد قدم عقيدة التوحيد المتأصلة في ثقافة وحضارة شعب مصر وملوكها، وإن كان التاريخ المصري القديم لا يزال غامضاً في حاجة إلى كشف ودراسة. أما الفراعنة (والفرعون لقب) فهم الحكام الجبابرة الفاسدين المفسدين الذين وفدوا غزاة ـ كالهكسوس ـ وحكموا مصر في فترات ضعفها. ولحكمة استخدم القرآن مع يوسف لقب «الملك»، ومع موسى لقب «فرعون».

يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

بعد أن سمع الملك من الشَّرابي (ساقي الخمر) كلاماً طيباً مشوقاً عن يوسف وحسنه وصلاحه وورعه وذوقه (وفي مجالس الشراب يحلو السماع والسمر)؛ وبعد أن أُعجب الملك بحصافة يوسف ورجاحة عقله وحسن تفسيره للرؤيا التي عجز عن فهمها العلماء والفقهاء؛ وبعد أن أُعلنت على الملأ براءة يوسف من التهمة الملفقة وطهارته من الدنس[1]، زادت رغبته في لقاء يوسف، بل قرر أن

(١) لا يفوتنا هنا ـ التزاماً بآداب اللياقة والذوق ـ أن نشير إلى موقف امرأة العزيز في مشهد التحقيق العلني الذي أمر به الملك بناء على طلب يوسف عليه السلام لإظهار براءته فقد تقدمت تلك السيدة بإرادتها طواعية لتدلي بالحقيقة القاسية على نفسها، والتي تدينها أمام الملك والحاشية وكبار رجال الدولة ـ وفيهم زوجها ـ والنساء اللاتي قطعن أيديهن من قبل عند رؤيته وهُنَّ غالباً من «سيدات المجتمع» الشهيرات اللاتي يسترقن الأخبار والأسرار ويروِّجن الفضائح (الدليل على علو شأنهنَّ أنها دعتهن لزيارتها وأعدت لهن متكأ أي مجلساً وثيراً فاخراً ولا تفعل هذا للعامة أو للسوقة). لقد سمعت مطلب يوسف بالتحديد وهو: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. فهو لم يذكرها صراحة، ولم يتهمها بمحاولة الخيانة، ولم يُسىء إلى هؤلاء النسوة بكلمة جارحة أو خادشة. فما كان من تلك السيدة إلا أن قالت صراحة وبشجاعة: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾. وزادت للتأكيد (والاعتراف بالحق فضيلة) فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾، ثم أضافت حكمة صارت مثلاً: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وختمت بطلب المغفرة من الله والرحمة: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (الآيات: ٥١ ـ ٥٣). لقد آن الأوان لكي يُرد إلى هذه السيدة المؤمنة اعتبارها (بدلاً من ملاحقتها في المؤلفات والخطب بالتجريح واللعنات). إنها حقاً أخطأت فيما اعتزمته (ولم يتحقق) وأخطأت في تماديها وملاحقة يوسف ثم تهديده بالسجن فسُجن. ولكن لا يجب إغفال الدوافع والظروف والمسببات، وهي كثيرة، منها: أنها كانت تعايش يوسف يوماً بيوم، في قصر شبه مغلق، وقد شاهدتْه ﴿نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فطاش عقلهن من أول نظرة فقطعن أيديهن ولم يصدّقن من حسنه أنه بشر، فالتمسن لها العذر. ثم إنها امرأة عزيز، ذي منصب كبير ومشاغل وهموم ربما صَرَفَتْه طويلاً عنها. وربما كانت تظن ـ بحق الملكية والسيادة ـ أنها تستطيع أن تفعل مع يوسف المشترَى ما تشاء ولا تثريب عليها. . . كل ذلك جائز. إلا أنها في النهاية، اعترفت بالخطأ وأقرت بسوء ما فعلت، وندمت واستغفرت واسترحمت. وتركت للناس من بعدها دروساً بليغة وحِكَماً مرشدة. . غفر الله لها، وسلام على يوسف في الصالحين.

يتخذه مستشاراً خاصاً أو وزيراً قبل أن يتم هذا اللقاء: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾. ثم كلَّمه. هنا وقفة!

كلَّمه في ماذا؟ إن نبياً يخاطب ملكاً يعني أن الحديث دار حول أمور جادة خطيرة، وليس حديث سمر ودعابة. فكان من أثر ذلك أن تعهد الملك له بالتمكين، أي التمتع بالمكانة والقدرة، وبالحماية: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾﴾ وماذا يرجو النبي من أولي الأمر لتبليغ رسالة ربه فوق التمكن والأمن؟

لقد تعجل الذين فسروا الحوار بين يوسف عليه السلام والملك بأنه دار حول تفسير الرؤيا واتخاذ الترتيبات العملية لمواجهة سنوات الجفاف والقحط. لأن هذا التفسير لا يستقيم مع ترتيب الآيات. وهي: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾﴾. لو كان الأمر كما قالوا لكان الأنسب أن يأتي وعد الملك ليوسف ـ عليه السلام ـ بالتمكين والأمن بعد اقتراحه أن يجعله على خزائن الأرض بما يملك من علم وأمانة. وليس كل مطلب يوسف النبي ـ عليه السلام ـ من ملك مصر أن يصير وزيراً للمالية أو الخزانة، فهذا لا يرقى إلى أذواق النبوة وأشواقها. إنه وزير أو غير وزير صاحب رسالة ورجل دعوة، وحاشا لرسول كريم من عباد الله «المخلَصين» أن يطمع أو يتلهف لاقتناص منصب ـ مهما علا في أعين الناس ـ مثلما زعموا أنه تلهف على مغادرة السجن ولمَّا تظهر بعد براءته.

إن قصة يوسف عليه السلام من أحسن القَصص أو النِّعم التي تُهْدَى إلى البشر ليتعلموا منها ويفيقوا لتستقيم أحوالهم ومعايشهم. وحقاً وصدقاً ما جاء في ختام سورتها القرآنية: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[1]. صدق الله العظيم.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

لقمان الحكيم: الشاكر الموحِّد

إذا توقفنا عند حكمة لقمان ـ عليه السلام ـ وموعظته لابنه كما ذكر في القرآن الكريم، سوف نجد أدباً رفيعاً وذوقاً حسناً. ولن ندخل فيما اختُلِف فيه: هل هو نبي أم لا. فيكفينا تماماً ما ذكره القرآن عنه وبيّنه لنا من إيمانه وذوقه وحكمته، في سورة واحدة تحمل اسمه. يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾[١].

فالحكمة إذن نعمة جليلة من نِعم الله عز وجل، يَهَبها لمن يشاء، مثلما خلق الإنسان وعلَّمه البيان. ومعنى الحكمة: إصابة الحق أو الحقيقة بالعلم والعقل. وهي من الله العليم الحكيم: معرفة الأشياء بجواهرها، وإيجادها على غاية الإحكام. والحكمة من الناس: معرفة المخلوقات، وفعْل الخيرات، وهذا ما وُصف به الحكيم لقمان.

ويوصَف القرآن المجيد بالحكيم، لأنه يتضمن الحكمة، ولأنه محكَم ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[٢]، وفيه: ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾[٣]. وفي الحديث النبوي: «**الصمت حُكْم وقليل فاعله**» أي في الصمت حكمة، ولكن القلائل من الناس يُحْسنون الصمت، ومتى يَحْسن الكلام، ومتى يفضَّل السكوت.

تقول الآية القرآنية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾. فكأن شكر الله تعالى هو جوهر الحكمة، ورأس الحكمة من الإنسان العاقل المفكر الرشيد. لأنه ـ بهذا الشكر لله ـ يقر اعترافاً بالفضل لصاحب الفضل؛ ويعترف بحقيقةٍ ملازمةٍ للإيمان والتوحيد: هي أن عطاء الله لعباده ـ المحسن منهم والمسيء ـ متصلة متوالية. فمن حسن الأدب والذوق إذن، تذكُّر ذلك والشكر عليه. وكما قال

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.
(٢) سورة هود، الآية: ١.
(٣) سورة القمر، الآية: ٥.

الشاعر الحصيف دكتور محمد عبد اللّه محمد:

وما الشكر حقاً إلا تذكُّر أنَّ أيادي الكريم نِعَمْ
ومـوجـةُ نعمتـه تبتـدي لـديـك لتمتـدَّ حتـى تَعُـمّ
وتنساب للقاع حيث الضعافِ تُعطي الرسالة للمستلِمْ
هنالك تلمح وجه الكريم يضيء الطريق فتخطو القدم

ومع ذلك، ينسى المرء، أو يغفل، ويلهو، ثم يقع في أزمات ومشكلات، وتتنابه أحزان وهموم ومضايقات، فلا يستحي أن يطلب ويُلح في السؤال والرجاء:

توالتْ أياديك يا سيدي لطافاً إليَّ ولستُ السببْ
وما بعجيب نوال الكريم، ومن قِلة الشكر كل العَجَبْ
وتطلب نفسي منك المزيدَ وتُسرف مُلْحِفَةً في الطلب
وتَنْسَى على الفور ما أُعْطِيَتْه لنقص الوفاء وسوء الأدبْ![1]

إن الشكر لله الخالق المنعم من أعلى مراتب الأدب والذوق الحسن. وهذا الشكر هو أول الطريق إلى الاستقامة والصلاح والفلاح. لأنه التهيئة والاستعداد لتلقّي المزيد من فضل الله ورحمته. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

ومظاهر الشكر كثيرة ومطلوبة: بالقلب، وباللسان، والفكر، والمناصحة والهداية بالمعروف. وكذلك الشكر بالعطاء، باليد الحانية الودودة الرحيمة، على نحو ما قيل:

يجود علينا الخيِّرون بمالهم ونحن بأموال الخيِّرين نَجُود

ومن هنا، كانت حكمة بالغة، أن يبيِّن لنا الله أولاً صفة لقمان وفضيلة الشكر البارزة عنده، قبل أن يخبرنا سبحانه وتعالى عن موعظته لابنه. وعندئذ نتذكر ـ ونذكِّر ـ أنَّ مَن يعظ، ومن ينصح، ومن يهدي إلى خير وفضيلة، يلزمه أولاً أن يكون مثالاً وقدوة. فقالوا في معنى الوعظ: هو تذكير بالخير فيما يرِقُّ له القلب.

(١) ديوان «الطريق» ـ د. محمد عبد اللّه محمد المحامي.

وقد يكون الوعظ، أو الموعظة: نُصْح مُقْترن بتخويف. يقول تعالى في سورة لقمان:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[1]

هكذا يكون النصح والوعظ الحسن الجميل. بداية: التحذير من الشّرك بالله، وقد سبقه الشكر للخالق الرازق المُنعم الوهّاب. فكيف تستطيب النفس أن تجعل له شريكاً بعد ذلك أو قريناً أو رباً قادراً غلاّباً سواه؟! إن الشّرك يناقض الحق، والعقل، والذوق، والإنصاف، والمنطق السديد. لذا، فهو ظلم بَيّن وإجحاف رديء. وصدق لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

وهو ظُلمان في الحقيقة: ظُلم العبد لنفسه، وظلم للحق والعدل وجوهر استقامة الحياة. وفي الكتاب المجيد تعبير قرآني في سورة البقرة، تكرر بالنص في سورة الأعراف، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[2].

واللافت للنظر، أن هذه الإشارة وردت في سياق الحديث عن بني إسرائيل في كلا المرتَيْن. لماذا؟ لأن الله جليل عظيم كبير قدير. سبحانه، لا ينتقص من قدره تطاول السفهاء ولا جهالة المشركين. ومخالفة الحق، والتمادي في الباطل والضلال، ظلم للنفس، بإظلام مصابيح الفطرة الوضاءة فيها، فتتخبط، وتتعثر، وتُشقي صاحبها في دنياه وآخرته. حقاً: إن الشّرك لظلم عظيم.

ثم تنتقل الآيات مباشرة إلى الوالدين، في وصية ربانية تعترض مسار الموعظة، وكأنها تُنبِّه، وتُحذِّر، وتبرز أهمية وقيمة العلاقة بين الآباء والأبناء كركيزة أساسية أولية لاستقامة الحياة الأُسرية، ولصلاح البيئة والمجتمع. فكما أن الشِّرْك بالله يُفسد التوازن النفسي والفطري في الإنسان، كذلك عقوق الوالدين يُفسد التوازن الطبيعي في البيت والمجتمع، وفي كلٍّ: فساد في الذوق، وإهدار للحق، وتفريط في النظام، ومَضْيعة للسكينة والأُلفة.

وفي عقوق الوالدين وبَخْس حقوقهما والتقصير في إرضائهما، ظلم للنفس

(١) سورة لقمان، الآية: ١٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧. وسورة الأعراف، الآية: ١٦٠.

أيضاً: لأن معنى الظلم في اللغة: وَضْع الشيء في غير موضعه زيادة أو نقصاً. وظلم النفس عاقبته سيئة في الدنيا والآخرة.

ومن حكمة القرآن ورحمة رب العالمين بكل الخَلْق، أن جعل هذه الوصية عامة شاملة، فهي ليست للمسلم فقط أو المؤمن، وإنما لكل إنسان: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾. هنا خطاب للإنسان في إنسانيته، وتذكير بالنوابض الأصيلة الحسنة المركوزة فيه، واستثارتها لتكون واجباً عند كل إنسان، ولتصير قيمة إيمانية راسخة عند الأتقياء الصالحين.

وعجيب أن تقول الوصية القرآنية: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[1].

معنى ذلك، أن الذوق الإيماني لا يمنع المؤمن الحق من أداء الواجب نحو والديه، حتى ولو كانا على غير رأيه، أو فكره، أو عقيدته. بل الأكثر من ذلك، حتى ولو «جاهداه» أي حاولا بكل جهد وحيلة وقسوة أن يحوِّلاه عن رأيه ووجهته في الإيمان والتوحيد، فإن ورَعَه وحياءه يمنعانه من الإساءة إليهما، أو التقصير في أداء الواجب نحوهما بأدب ولطف وذوق. وبعد ذلك، مصير الجميع إلى الله، فيكشف لكل إنسان ما قال وما فعل، ثم يحكم بالعدل، وهو خير الحاكمين.

شُعَيْب: الحليم الرشيد

إذا تناولنا جانباً من أخطر وأهم الجوانب التي تشغل أفكار الناس وتؤثر على أنشطتهم وسلوكهم ومعيشتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض: جانب المال والاقتصاد والكسب، دلَّنا نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ في حلم ورشْد، على ركائز للسلامة والصواب وحُسن الذوق في مضماره. وقد ذُكر ـ عليه السلام ـ في أربع سور من القرآن الكريم: الأعراف، هود، الشعراء، العنكبوت. ولنتأمل هذه الآيات القرآنية من سورة هود:

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾(١).

لو دققنا النظر، لوجدنا أن هذا الجانب المادي في الحياة، هو المحور أو الأساس الذي يدعم ويثبِّت، أو يهز ويخلخل قواعد ومبادىء ضرورية حيوية في تكوين الفرد: كالأمانة، والكرامة، والنزاهة، والعفة، والإنصاف.

وهي أيضاً مبادىء ضرورية في سلامة المجتمع: كالأمن، والعدل، والتآلف، والتراضي، والانضباط. وكلها تذكّرنا بها وتوجهنا إليها تلك الآيات القرآنية. لكن الذي يسترعي الانتباه أولاً، هذا التعبير القرآني الجميل: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾. فاستخدام كلمة «أخ» هنا، ألا تدل على شيء؟

إن الداعية إلى الخير والإصلاح، وكذلك المعلِّم والموجه والناصح الأمين، لا ينسى أبداً أنه «أخ» مهذَّب مهذِّب رفيق رقيق، ودقيق في اختيار كلماته وألفاظه، بالقدْر المناسب، وفي الوقت الملائم. ليس فظاً، ولا متعالياً، ولا متأففاً ضجراً. وإنما هو «أخ» ـ في البشرية على الأقل ـ لكل الناس: صديق للمؤمنين الصالحين يزداد بهم إيماناً وحلماً وعزماً، ورفيق بالعُصاة والمقصِّرين يرجو لهم هداية واستقامة. وهذا من حُسن الذوق الخاص والعام معاً، ويفرضه الذوق الإيماني الرشيد.

بدأ شعيب ـ عليه السلام ـ بالدعوة إلى التوحيد: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾. لأن هذا هو الأساس والجوهر، وكل شيء ما خلا الله باطل، وكل نعيم لا محالة زائل. وعند الحديث عن المال والكسب، لا يُنْسَى أن الله هو الرازق المنعِم الوَهّاب المقدر.

وإذا ما أُشْرِبت النفس حب التوحيد الخالص وعَرَفت مذاقه، رواها من خمسة

---

(١) سورة هود، الآيات: ٨٤ ـ ٨٦.

ينابيع لا غنًى للإنسان الصالح المهذَّب عنها لاكتمال شخصيته وإنسانيته معاً، والارتقاء بهما: عزة النفس، إيثار العدل، غَلبة الرحمة، إكبار التواضع، والمراقبة الذاتية المستمرة.

بعد ذلك، يأتي جوهر الرسالة التي أُمر شعيب ـ عليه السلام ـ بإبلاغها: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. ثم أوضح فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾. وفي سورة الشعراء أضاف تحذيراً: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢)﴾[1].

فإنقاص المكيال والميزان إذن، فيه خسارة محقَّقة في الرزق (من الله) والكسب (من السعي)، ونقص في الخُلق والذوق، وإنْ بدا للمنقِص أنه يستزيد لنفسه ويربح. والله تعالى لا يُصلح عمل المفسدين. ويمتد هذا التحذير إلى كل تعامل مادي في الحياة، وليس فقط فيما يُكال أو يوزَن. ففي سورة الرحمن يقول الله تعالى:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ (٩)﴾[2].

إنها آيات تُخيف المؤمن الصادق الإيمان وتُرهبه: فهو يعلم اليوم ـ أكثر من أسلافه ـ شيئاً عن السماء المنظورة أو المُدْرَكة، وضخامة ما فيها من أفلاك وأكوان ونجوم ومجرات، تمضي في مساراتها بدقة مذهلة، ونظام دقيق مدهش، لا يقدر عليه إلا خالقها ومُبْدعها. فبعلمه سبحانه وبقدرته رُفعت السماء، وبحكمته جل شأنه وعظمته، وُضع ميزان العدل، وبه تنتظم كل الأكوان والأزمان، وإليه تستقيم حياة الخلائق أجمعين.

من هنا، يكون المؤمن الحق حذراً يقظاً: كل شيء عنده بميزان، وكل قول بميزان، وكل تعامل وسلوك وأخْذ وعطاء.. حتى في ظنه وفي صمته، كل شيء

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٨١ ـ ١٨٢.
(٢) سورة الرحمٰن، الآيات: ٧ ـ ٩.

بحساب دقيق وميزان. وفي حديث خاتم المرسلين ﷺ: **«حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزَن عليكم»**.

ونلاحظ أيضاً في كلام شعيب ـ عليه السلام ـ وهو يخاطب المشركين المفسدين حين يدعوهم إلى التوحيد والاستقامة والعدل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾(١). إنه أسلوب للدعوة والهداية فيه رقة وذوق. وقد شهدوا له ـ في الآيات التالية ـ بأنه؛ حليم، رشيد. فهو إما يقصد بالخير: ما رآه من نِعم الله عليهم وخيراته الوفيرة لديهم، فهو يذكِّرهم ويستثير واجب الشكر لواهب النِّعم، وحق الاعتراف بفضله وطاعته؛ وإما أنه يستميلهم إلى الطاعة ولا يصادمهم، يحفزهم ولا يجرحهم. لم يقل مثلاً: إني أراكم سفهاء ظالمين مشركين. أو لعله كان يتوقع منهم استجابة لنُصحه، فهو يخاطب جانب الخير المركوز في كل إنسان ولا يُفسده إلا الجشع والجهالة وهوى النفس الأمَّارة بالسوء.

ثم يظهر حلمه ورشده في حرصه على صلاحهم وفلاحهم وحب الخير لهم. وذلك في قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾(٢).

هذا مبدأ قويم في أسلوب الدعوةِ إلى الله، وفي تهذيب خُلق المؤمن الصادق الإيمان: لا يحب الخير لنفسه وأهله فقط، وإنما يرجوه لكل الناس، ويخاف الأذى والمضرة لكل الناس، ويخشى أن ينزل غضب الله على الناس، كل الناس. وهكذا كان خُلق نبينا محمد ﷺ. حتى إن القرآن الكريم خاطبه بقوله تعالى في سورة الكهف:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾(٣).

وأيضاً في أول سورة الشعراء(٤): ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٤.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٤.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٦.
(٤) سورة الشعراء، الآيات: ١ - ٢ - ٣.

فالناس عامة يحبون الذوق الحسن والرقة، ويستميلهم التلطف الوقور والمودّة، وتنفرهم الخشونة المتعالية والغلظة. وكان نبينا ﷺ رقيقاً حليماً، لا يسفّه ولا يحقّر ولا ينفّر. وكفاه عزاء ويكفينا شرفاً بالانتساب إليه، أن يقول عنه ربنا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1].

ويمضي شُعيب ـ عليه السلام ـ في مخاطبة قومه بالحسنى، فيصوغ «قانوناً» سماوياً في صورة نَهْي تستقيم به أمور الناس في الحياة، وتَصلح تعاملاتهم وعلاقاتهم ومعايشهم بمقتضاه، وفوق ذلك: يستجلب رضاء الله عنهم، فيبارك لهم، ويفيض عليهم من عطائه وفضله ورحمته. قال: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾.

والبخْس: إنقاص الشيء، أو القَدْر، أو القيمة؛ وهذا بين الشرفاء خسيسة، وعند الكرام مَذَمة، وفي خُلق المؤمنين وأذواقهم عيب وخطيئة.

وليس البخس قاصراً على ما يُكال أو يُوزن. ولا هو في الأموال والمتاع وحسب، بل في كل ما له قيمة مادية ومعنوية. فالذوق الإيماني هنا يُفرض أن يُعطي كل شيء، وكل إنسان ـ نحبه أو نبغضه ـ حقه وقيمته وقَدْره، ولو بالاستحسان إذا أحسن، وبالكلمة الطيبة إذا أصاب. وبذلك تشيع الأُلفة والترابط، والتراحم والتفاهم، والعدل والإنصاف: في البيت، وفي مواقع الأعمال، وفي كل مكان من المجتمع.

وفي سورة المائدة من القرآن الحكيم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) يطل علينا هنا مبدأ الحرية، لكل الناس، ومبدأ العدل، مع كل الناس، ومبدأ المساواة، بين كل الناس. وهي مبادىء أو قيم إيمانية من قديم الزمن، بشَّر بها ودعا إليها أنبياء الله ورسله، منذ أن حيل بين نوح عليه السلام وابنه، فتركه يغرق لمساواته بالكفار المعاندين =

وفي الحق، لا يتوافق البخس أبداً مع أخلاقيات المؤمن أو المؤمنة. وإن صام وصلى وحج واعتمر. بل العكس هو الصحيح. فالمؤمن الصادق الإيمان لا يبخس الناس أشياءهم، وإنما هو يزيد، ويُحْسِن، ويجود، ويُكْرِم، ويقول للمحسن أحسنت، وبارك الله لك، ويقول للمسيء أخطأت وعفا الله عنك، ما لم يكن في ذلك إهدار لحقوق الناس. وفي سورة النور من القرآن الكريم يأمرنا ربنا عز وجل:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾(١).

يقول الرواة:

نزلت هذه الآية القرآنية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كان يتصدق بمال على بعض الفقراء وفيهم أقاربه. فلما بلغه أنهم تكلموا بحديث كاذب مفترًى أغضب رسول الله ﷺ وثبت أنهم تكلموا إفكاً وبهتاناً، تألّى أبو بكر، أي حلف أن يمنع عطاءه لهم، فنزلت الآية، وفيه: ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ ﴾ فقال أبو بكر: بلى، أنا أحب أن يغفر الله لي! وأعاد ما كان يجريه على الفقراء، رضي الله عنه.

إن إهدار مبدأ عدم البخس أو التغافل عنه، يترتب عليه فساد كبير. لأن الله

= دون نظر إلى قرابة أو نسب. وأيضاً قبل ذلك، حين رفض عليه السلام أن يطرد القلائل الذين آمنوا بدعوته، وهم بسطاء فقراء، استجابة لرغبة الكبراء السفهاء، وتكرر ذلك مع غيره من الأنبياء. وفرق كبير بين الأذواق والقيم والمبادىء الدينية، في الحرية والعدل والأخوة الإنسانية والمساواة في الحقوق العامة والواجبات، وبين ما تدعيه وتزهو به ثقافات أو نواتج ثورات بشرية. لأن الواقع العملي يوضح ويؤكد أن الشعارات والكلمات شيء، والتطبيق أو التنفيذ العلمي شيء آخر، وكثيراً ما يخالف ويناقض على مستوى الأفراد والمجتمعات والحكومات والمؤسسات الدولية. أما العقيدة الدينية الصحيحة فهي تجعل المؤمن الصادق ملزماً نفسه، ومراقباً سلوكه وضميره، وحذراً من غضب الله الشهيد العليم.

(١) سورة النور، الآية: ٢٢.

تعالى ينهى عن ذلك على لسان شعيب: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ثم يُتبعه بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾(١). وبعد ذلك يُشير إلى أن ما يَبْقَى من الحلال الطيب خير وأنفع مما يُجمع من حرام خبيث، وثوابه من الله في الدنيا بركة وزيادة، وعنده في الآخرة رحمة ورضاء.

ثم يقول شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾. هنا لا بد من الالتفات إلى أمر كبير الأهمية لنا عند النصح والإرشاد والتوجيه، وهو: معرفة حد التوقف. لقد بلَّغ نبي الله ووضَّح، فوفَّى وكفى، ثم توقف. وأي خطوة بعد ذلك فيها تزيُّد غير مطلوب. فترك الأمر إلى الله الرقيب الحسيب يفعل بهم ما يشاء. وهذا ما أُمر به نبينا ﷺ في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾(٢). وفي سورة الشورى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ﴾(٣).

وقبل أن نترك حوار شعيب مع قومه، يحسن أن نشير إلى قوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ﴾(٤). إنه يؤكد ويُلزم نفسه علانية بمبدأ: الأُسوة الحسنة. فالداعية قدوة، والمؤمن الناصح الأمين قدوة، وكذلك القائد في أي موقع مثال صالح وقدوة. وإلا صدق فيه قول أبي العتاهية:

يا واعظ الناس قد أصبحتَ مُتَّهَماً ... إذ عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتيها
وأعظم الإثم بعد الشِّرك نَعْلمه ... في كلِّ نَفْس: عَماها عن مساويها
وشُغْلها بعيوب الناس تُبصرها ... منهم، ولا تُبصر العيب الذي فيها

ثم يختم عليه السلام هذا القَدْر من التبليغ والإرشاد في أدب وذوق وموعظة حسنة بقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٥).

---

(١) عَثا عُثُوًّا: أي سعى بالفساد.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٤) سورة هود، الآية: ٨٨.
(٥) سورة هود، الآية: ٨٨.

هذا مبدأ عظيم في الاعتراف بحدود القدرة البشرية، مع وضوح الهدف، والجد في السعي، وحُسن الصلة بالله الهادي والمعين. وإنها لنعمة كبرى من واهب النِّعم، تستوجب الحمد والشكر، أن يوفق وييسِّر ويعين. وعلى لسان المؤمن يجري دائماً هذا الدعاء: اللهم يسِّر ولا تعسِّر. اللهم تَمِّم بالخير. ومَن توكل على الله ـ بإخلاص كامل وصدق ـ لا يندم، ولن يخيب.

مع رسول المحبة والسلام

هو عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل. نبي سمح ودود كريم. له آداب في التعامل، وأشواق وأذواق في المواقف والتحالف والسلوك. آثره ربه بِنِعَم كبيرة في شكل معجزات مادية، بين أقوام لا يؤمنون إلا بالماديات، ولا يشغل تفكيرهم وحياتهم غير الأشياء والمحسوسات. لكنه كان قدوة طيبة في سلام النفس والقلب والفكر والضمير. فعلَّم وأرشد، وأيقظ الساهين من غفلتهم حين بيَّن لهم استحالة أن يعيش المرء حياة هانئة كريمة بالماديات والمحسوسات فقط؛ كما أن إنسانيته الكامنة فيه تعجز عن النشاط والنمو إذا حاصرت الماديات ينابيع الخير والبر المستقرة في فطرته، واستحوذت على كل اهتمامته ورغائبه وجهوده، فتغرقه وتدمره، وتجفف مشاعره النبيلة، وتُظلم الجانب الوضاء فيه. ولذا، جاءت بعض معجزاته مادية تتحدى قدرات واجتهادات وأحلام كل الواهمين والغافلين والمتسعْبَدين للأشياء والماديات. ففي سورة المائدة:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾(١).

هكذا كان بنو إسرائيل حين أُرسل إليهم عيسى بن مريم عليه السلام يدعوهم إلى استعادة التوازن بين مطالب الجسد واحتياجات الروح. فاستخفوا به وطاردوه

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

وتآمروا عليه. فكانت من جانبهم جهالة وفساد ذوق: إذ هو يرشّدهم ويرجو لهم الخير، وهم يقابلونه بالتبكيت والتكذيب والازدراء.

إن عيسى عليه السلام، بتلك الخوارق أو المعجزات التي ذكرها القرآن المجيد، يهدم بلا هوادة ولا رجعة، حاجز الغفلة والغباء والغرور الخادع عند أولئك الذين يظنون خطأً أن كل ما هو غير مادي لا تدركه الحواس، لا قيمة له ولا معنى. فأتاهم ـ بإذن ربه ـ بآيات بيّنات تراها أعينهم، وتدركها حواسهم، وتعجز قدراتهم على صنع مثلها، وتتحير عقولهم في تفسير حدوثها، فآمن من آمن، وكفر من كفر عُتواً واستكباراً.

وظل عليه السلام ثابتاً على إيمانه وإخلاصه لربه. وضرب المثل الطيب الجميل على حُسن الأدب مع الله، وحُسن الذوق في الخطاب، وفي الحياء، وفي الالتزام، وفي تسليم الأمر لله.

وهذه خواتيم سورة المائدة تبين لنا كل ذلك:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[1].

قبل أن يُجيب عليه السلام على السؤال، أسرع بالتقديس والتنزيه وتمجيد ذي الجلال، قال: «سبحانك»! ثم ذكر على الفور المبدأ الواجب في الالتزام والوقوف عند حد المباح والمتاح: قال: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾

والسؤال هنا ليس للاستعلام والمعرفة، فالله تعالى جل شأنه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ كما قال عيسى عليه السلام. وإنما هو سؤال تُقيم الإجابة عليه حُجة بلسان النبي على الذين يتقوّلون بغير حق، وبغير علم، وبغير تثبُّت ويقين.

ومن حيث الالتزام المقرون بالحياء والخشية من الله، قوله عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾. فالتوحيد جوهر رسالة كل الأنبياء.

---

(١) سورة المائدة، الآيات: ١١٦ – ١١٧.

وهو ليس فكرة، ولا نظرية؛ وليس مرحلة تطور وارتقاء في التصور والخيال، ولا تحركاً فلسفياً في اتجاه معين، أو في مواجهة اتجاه معين. إنه اعتقاد واضح راسخ يحتوي حياة المرء، تدركه المخلوقات كلها بالفطرة، وتنجذب إليه الأرواح جميعها بالطبع، ما لم تقيدها أغلال الغيّ، وأوهام الهوى، ومجاهيل الجهل الغَرور. فإذا ما انزاحت تلك الحواجز والقيود، سرى التوحيد مسراه في توجيه المؤمن ـ في أقواله وأفعاله ـ نحو الله خالقه ورازقه ومُحييه ومتوفيه. وكما جاء في سورة الأنعام:

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[1].

إن أمر العقيدة كما نرى، بسيط ميسور لكل إنسان، وفي أي مكان، وبابه مفتوح لكل صاحب عقل وضمير يحب الحرية والعدل والاستقامة وصفاء الإنسانية. وحين يضع يده في يد الله المبسوطة بالخير على الدوام، من غير شفيع ولا وسيط، تصير صلته مباشرة مع ربه الحسيب الرقيب؛ ويصبح ويُمسي ـ في داخله ـ سيد نفسه وإرادته وضميره.

إن عيسى عليه السلام حين قال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ ﴾، يقرر للملأ جميعاً أنه يشهد بما يرى ويسمع، وليس حاكماً على ما يفعلون، ولا قاضياً على ما يَصْدر منهم، أو متسلطاً عليهم باسم العقيدة أو الدين. وهذا من حُسن الأدب والفهم، ومن حُسن الالتزام والذوق، ولذلك قال لربه: ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾. إن الدعوة إلى الله لا تعطي للداعية حق تصنيف الناس وإصدار الأحكام عليهم، وإلا اختل نظام المجتمع، واشتعلت بين جماعة الأمة نيران التحزُّب والفُرقة والفتن.

ويبدو واضحاً جانب الرقة والشفقة بالإنسانية عند رسول المحبة والسلام، مع

---

(١) سورة الأنعام، الآيات: ١٦١ ـ ١٦٣.

تسليم أمرِ الناس إلى الله، إذ لم ينزل عليه تشريع ولم يؤمر بقضاء. فهو يقول: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1].

وهذا الجانب الرقيق الشفيق في خلق رسول الله عيسى عليه السلام كان واضحاً كل الوضوح منذ أن كان وليداً زكياً. ماذا قال حين تكلم ـ بإذن ربه ـ في المهد صبياً؟

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[2].

إنها كلمات تفيض رقة وعذوبة وأدباً وذوقاً وإيماناً فطرياً خالصاً مصفًّى. وانظر إلى قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾. في معرض التبيان وتعداد نعم الله عليه، يذكر فضيلة البِر بأمه، وكأنه يذكِّر الناس بهذه الفضيلة الواجبة، لما تحمل من أدب وذوق إيماني إنساني مهذب. وإهمال تلك الفضيلة الواجبة أو التقصير في أداء حقها ممقوت مرذول، بل هو من سمات الجبابرة، وعاقبته شقاء في الدنيا والآخرة.

فسلام على رسول الله عيسى ابن مريم، يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يُبعث حياً.

سليمان: ملك الإنس والجان

بعد هذه المسيرة التي تقترب من نهايتها، لعلنا استخلصنا معاً حقيقة جوهرية في حياة المسلم الصادق الإيمان، والمسلمة، وهي: أن «الذوق الإيماني» المزين والمتمم للعبادات والمعاملات، هو بمثابة «الشرارة»، شرارة البدء في تحريك بواعث الإحساس الصحيح بالجمال، الجمال الروحي أولاً، والجمال المادي بعد ذلك. وعند البعض، هناك فرق ليس بالقليل بين مسلم طيب ملتزم، يفهم الإسلام

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٣.

محصوراً في أوامر ونواهٍ يحاول أن يسمع له ويطيع، أو قاصراً على عبادات مفروضة يجتهد في أدائها وتكرارها، عادة متّبعة في أعمال اليوم والسنة.. فرق بين هذا المسلم الطيب المجتهد، وبين مؤمن صادق الإخلاص لله، يعيش الإسلام في قلبه وفكره ومشاعره وضميره، لحظة بلحظة، وكأنه طاقة روحية نشطة متجددة، لا يتحرك إلا بها، ولا يُسمع صوته إلا من خلالها، ولا يستقيم مساره في الحياة إلا بهَدْي من أنوارها، أياً كان موقعه بين الناس، أو منزلته في دنيا الناس، حتى ولو كان ملكاً يحكم الإنس والجن معاً. وهذا خير مثال من سليمان عليه السلام، وقد حدثنا عنه القرآن الكريم بشيء من التفصيل في سورتي النمل وسبأ. يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

أول ما يلفت النظر في مستهل الآيات: النعمة من الله، يقابلها على الفور الحمد من العبد: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾. فالعلم الصحيح النافع في الدنيا والآخرة: نعمة. فما بالنا إذا كان علماً إلهياً لعبد اختصه الله بشيء من الفضل والمعرفة؟ وفي سورة النساء، يخاطب ربنا جل وعلا خاتم الأنبياء ﷺ بقوله:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾[2].

(١) سورة النمل، الآيات: ١٥ - ١٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

إن من الذوق الإيماني إذن، مقابلة الفضل والنعمة بالشكر والحمد. ولما كانت نِعَم الله على عباده كثيرة لا تُحصى ولا تُعَد، فإن المؤمن الشكور دائماً في سره وعلانيته: حامد، حَمَّاد، متواصل التحميد، بالقلب وباللسان والعمل، من غير رياء أو تزهد.

والحمد أعم من الشكر وأخص من المدح. وفي قول داود وسليمان عليهما السلام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾. إشارة إلى أن المؤمنين عند الله درجات، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، والله يختص برحمته وفضله من يشاء. فكان سليمان عليه السلام قدوة حسنة للغني الشاكر، وللملك الحاكم الصالح الشكور.

وحَسْب المؤمن ـ وكذلك المؤمنة ـ أن يحوِّل بعض الحمد والشكر لله، إلى إسداء فضل ومعروف إلى عباد الله، باللين والحسنى مما أفاء الله عليه: علماً، أو مالاً، أو قُدرة، أو عوناً وإنصافاً لما له من مكانة ومنزلة. فيستقر في ضميره وسمعه على الدوام: أنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأن من شكر يُزاد ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، والله صادقٌ وعدُه.

وفي دعائه، يرجو المؤمن من ربه أن يُعِينه على حُسن الحمد والثناء. ولقد أحسن الشاعر أبو العتاهية إذ يقول:

يا ربِّ أنت خلقْتَني وخلَقْتَ لي وخَلَقْتَ مِنِّي
سبحانك اللهمَّ عالم كلِّ غيب مُسْتكِنِّ
ما لي بشكرك طاقةٌ يا سيدي إنْ لم تُعِنِّي

ومرة أخرى تذكر الآيات القرآنية شُكْر سليمان عليه السلام ربَّه، وقد علَّمه لغة الطير، فسمع ما قالته نملة، فتبسم ضاحكاً من قولها. هنا إشارة إلى فضيلة العلم، وشرف العلم، وما يجب على العالم والمتعلِّم من الشكر حين تلقِّي العلم، وسؤال المولى عز وجل أن يَهَب التوفيق إلى حُسن الانتفاع بهذا العلم، قولاً وعملاً وسلوكاً، ونفْع الناس به.

وسليمان عليه السلام يدعو ربه أن يلهمه شكر النعمة، والتوفيق إلى العمل الصالح، ثم: أن يُدخله في عباد الله الصالحين. هنا يَحْسُن التأمل والتدبر. إن مَن قال هذا الدعاء ورجا تحقيق هذا المطلب، ملك ابن ملك. وتشاء إرادة الله وحكمته، أن تجتمع النبوةُ والمُلك في إنسان اختصه الله برحمة منه، وآتاه علماً وفضلاً. ولم يكن مُلك سليمان هَيناً بسيطاً. فقد تجاوز سلطانه الإنس إلى الجن إلى الطير، إلى الرياح الطيبة تجري بأمره مشرّقة ومغرّبة حيث يشاء:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [1].

بهذا المُلك العريض، والسلطان الفريد، والقُدرة الهائلة، التي لم تُمنح لأحد من البشر بعده، قدَّم سليمان ـ عليه السلام ـ المثل الطيب على أداء حق النعمة، ثابتاً على إيمانه وإخلاصه لربه، دائم الذِّكْر والشكر، يرجو أن «يُدْخله» في عباده الصالحين.

ولِمَ لا؟! وقد اختصه الله برحمته، وعلم يقيناً أنّ عَرَض الدنيا مهما كثر حلالاً واتسع، لا يتساوى مع الهدف الأبقى والأسمى والغاية الكبرى: نوال الرضا من الله، وسعادة القرب من رحابه. وإنها لحكمة بالغة، أن يَعْرض القرآن الكريم نبأ سليمان، ومن قبله داود عليهما السلام، ويصف كلاً منهما بأنه: أوّاب، أي كثير الذِّكر والتسبيح والاستغفار والرجوع إلى الله. ويُضيف إلى سليمان حُسْن العبودية لله، فيزكيها له بقوله: ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [2].

وفي المقابل، أو على العكس تماماً، نرى الجحود والغرور والاستعلاء الكاذب وفساد الذوق بمقابلة النعمة بالتمرد والبغْي، نراه في موقف قارون وما كان من أمره، فكان عاقبته:

---

(١) سورة سبأ، الآيتان: ١٢ ـ ١٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٣٠.

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ
نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١).

---

(١) سورة القصص، الآيات: ٨١ ـ ٨٣.

الإسلام وأذواق الإيمان

وماذا بعد؟

عندما نصل إلى ختام هذا القدر من النظرات في آيات القرآن الكريم ـ وفيه الكثير لمن أراد أن يستزيد ـ عن الذوق الخاص للفرد، والذوق العام للمجتمع، والذوق الإيماني الذي أضافه الإسلام تحسيناً وتزييناً للأقوال والأعمال والتعاملات، لصياغة حياة الفرد والأمة كلها في هذه الحياة الدنيا على نحو وضاء منعش سليم مريح، يُفضي بعد انقضاء الأجل المقدور إلى حياة النعيم الأكبر والرضوان الأبقى والأعظم، نتدبر قول ربنا عز شأنه في سورة يونس:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾[1].

إنه وعد من الله تعالى للذين أحسنوا في هذه الحياة الدنيا: استقاموا على هَدْيه في دنياهم، فأقاموا خالدين بدار السلام منعَّمين ومكرَّمين. ولكن قد يقال: إن كل إنسان يحب الحُسْن، ولا يرفض الجمال، وربما بحث عنه في تنويعات الصور والأشكال والمقتنيات والأدوات والأزياء والأشياء. نعم، وقد يقضي حياته كلها مشغولاً ـ ومزهواً أيضاً ـ بامتلاك الحَسَن والجميل من تلك التحف والمزينات. وماذا بعد ذلك؟ إن الجمال هنا محصور ـ مهما تألق وتأنق ـ فيما يبلَى ويفنَى. وكلنا يدرك معنى قول الله تعالى في سورة الرحمن، بعد أن بيَّن صوراً من إبداعاته في دنيانا، ومنها اللؤلؤ والمرجان ـ وهما من أدوات التجميل والزينة ـ وأشار إلى البحار والسفن العظيمة الفاخرة ـ وهي من مظاهر الزهو والعز ـ قال:

---

(١) سورة يونس، الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) ﴾[1].

إن الجمال الأبقى والأسمى يكون فيما يتعلق برغائب الروح وأشواق النفس التي تنشد السكينة والأمن والسلام.

لا أحد يرفض أو يُنكر الجمال والحُسْن والزينة في هذه الحياة الدنيا. وقد مر بنا من قبل الأمر الإلهي: ﴿ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[2]. لكن الإسلام ـ دين الوسطية ـ هو أيضاً دين التوازن والاتزان: فإذا كانت جماليات الصور والأدوات والأشياء تتعلق بإمتاع الحواس، فأين مطالب الروح؟ إن المؤمن في حاجة دائمة ـ ويومية ـ إلى «تغذية» وإشباع مستلزمات الروح، لتقوى وتنشط، وتسمو بدورها وتُبدع.

لنأخذ مثلاً قول الله تعالى في سورة السجدة:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾[3].

سهرت عيونهم طاعة وخشوعاً لله في الدنيا، فقرَّتْ بفضل الله ورضوانه في الآخرة. وهنا ركيزة «الذوق الإيماني» الذي نقصده: ذُكِّروا بآيات ربهم، فأسرعوا بالسجود والتسبيح والامتثال والحمد. ثم، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾، أي لا يركنون إلى اللهو والتغافل والكسل، بل هم في شوقٍ حافزٍ مستمر، يتركون مضاجعهم قياماً لله، ويستوي في ذلك مضاجع وثيرة جميلة فاخرة، ومضاجع فقيرة خشنة من ليف، مثل وسادة رسول الله ﷺ التي كان ينام عليها.

ولا ضمان!

---

(١) سورة الرحمٰن الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.
(٣) سورة السجدة، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

إذ ليست كثرة الصلاة والتسبيح والحمد والإنفاق مجلبة لرضوان الله وعطائه حتماً مقضياً أو قاعدة مطلقة. فالعبادات ـ وهي فروض واجبة الأداء، ودعائم لإقامة البناء ـ لا تُقاس بالكثرة أو القِلَّة. ونبينا ﷺ يحذِّر ويبين: كم من قائم، مصلٍّ، ليس له من صلاته إلا القيام والقعود والسهر، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش.

إذا لم تكن العبادات قوة دافعة إلى صفاء النفس، ونقاء القلب، وأداء الحق، وولاء العدل، ووفاء العهد، وإسداء البِر، وإجراء المعروف، فهي عبادات شكلية مظهرية سطحية، طاقتها الروحية خاملة، لا تحرك ولا تدفع.

إن «امتصاص» الإسلام لإشباع جماليات النفس والروح، وإرواء الحُسْن الكامن في الفطرة التي خَلق الله الناس عليها، هو المقصد والجوهر، حتى لا يحتجب هذا الجمال وذاك الحسن الروحي خلفَ حواجز متكاثفة من شواغل وأوهام تحول بين المرء وقلبه.

اللهم حَبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر، والفسوق، والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

الفهرس